

رواية

بدرية

وليد الرجيب

الإهداء

إلى الجنين

عناوين المؤلف

e-mail: alrujaibcenter@hotmail.com

osbohatw@gmail.com

www.alrujaibcenter.com

www.osboha.blogspot.com

العنوان البريدي للمؤلف

ص ب : 2752 القرين 47378 الكويت

هاتف: 25660704-00965

تليفاكس: 25660705-00965

تصميم الغلاف: أحمد صقر

أنا وبدرية

لا أعلم ما قصة بدرية معي بالضبط، وما علاقتها بصيرورة حياتي، قد يكون الأمر متعلقاً بحولي، هذا المكان الساحر والفاتن، حولي مهد الطفولة والاكتشاف المدهش، وتفتق الوعي على الثقافة والشعر والموسيقى، حولي التي استضافت شجر السدر، وسيول المطر، وطيور الربيع السعيدة، وكل قصائد الحب التي بدأت من هناك.

كان العام 1986م، وكنت مسؤولاً عن الصفحة الثقافية في مجلة العامل، التي يصدرها الاتحاد العام لعمال الكويت، وفي تلك الفترة بالذات، حل مجلس الأمة الكويتي، وعلق العمل بالدستور، ووجدت نفسي أصيغ ردة فعلي بطريقة غريبة، إذ بدأت بكتابة بدرية، وبدأت أنشرها على حلقات في مجلة العامل، لم أكن أعرف ماذا سأكتب في الحلقة القادمة، ولكن النوستالجيا كانت تتدفق كسيول مطر حولي، وكأني كنت أكتب سيرة غضبي، وألمي لفقد حولي، أو فقد الكويت لا فرق، كنت أرى الكويت طفلة يتيمة الأبوين، تخليا عنها عندما بدأت تفتح، لكن الناس الطيبين، الذين كنت أرى نماذجهم في حولي، احتضنوا بدرية، واعتبروا أنفسهم أهلها، كانت ابنتهم جميعاً، وخصوصاً العامل فلاح، وتلميذه الشاب فهد.

ولدهشتي أن عمال النفط، كانوا يتهافنون على المجلة ليتابعوا حلقات بدرية، وقال لي أحدهم: "عندما تصل رزم مجلة العامل، كنا نتخاطفها، ونترك العمل في أبراج انتاج النفط، ونستند بظهورنا على الآلات، ونقرأ حلقة بدرية متمنين إلا تنتهي، ونشعر بانتماء غريب لها"، وكانوا يتصلون بي ليسألوا: "ماذا سيحدث لبدرية في الحلقة القادمة"، فأجيبهم: "خلوها مفاجأة"، رغم أنني لم أكن وقتها أعرف ماذا سأكتب في الحلقة القادمة.

وكان من أشد المتابعين لحلقات بدرية، القائد العمالي الوطني التقدمي، رئيس الاتحاد العام لعمال الكويت، المناضل المرحوم ناصر الفرج، وكان يجلس معي بعد قراءته لكل حلقة، يناقشني ويتحدث معي بشأن الثقافة والأدب والمسرح في الكويت، لكن بعد رحلته للعلاج في الخارج، استدعاني رئيس الاتحاد بالإتابة، وعنفني على ما نشرته من حلقات، وأمر مدير التحرير بإيقاف نشر حلقات بدرية، فتوقفت عن الكتابة حتى عام 1989م، إذ كان المحرك لي والمحفز، هم العمال أنفسهم، وفي نفس هذا العام، أنهيت كتابة الرواية.

ولكن بعكس ردة فعل العمال، استقبل بعض الكتاب والنقاد والمثقفين، مخطوطة بدرية بالاستخفاف والاستصغار، وبأسنذة متعالية، بل أن أحد النقاد قال لي بالحرف الواحد: "ارميها بالزباله"، والبعض قال أنها ساذجة، والبعض قال: "جهد ضائع"، لكنها محاولة أولية، وكان الأجدى بالكاتب الالتزام بكتابة القصة القصيرة، التي نجح بها، والبعض قال لغتها بدائية.

لكني كنت مؤمناً ببدرية، إيماني بقدره وطني على تجاوز محنته، فأعطيته للأستاذ حسام بو مجاهد، مدير دار الفارابي بذلك الوقت، واقتضت من البنك تكاليف طباعتها، وانتظرت صدورها بصبر فارغ، وصدرت في العام 1989م، وشحنتها الدار لي جواً.

وفي إحدى الصباحات فوجئت بمكالمة من رقابة وزارة الإعلام في مطار الكويت، وطلبوا مني مراجعتهم، وبالفعل ذهبت وقابلني موظف بالإعلام، مكلف بمراقبة المطبوعات القادمة من خارج الكويت، وخاصة في ظل تعطيل الدستور، وسن قوانين الرقابة المسبقة والمهينة، على الصحف والمطبوعات، وقانون حضر التجمعات، وغيرها من القوانين المقيدة للحريات، كان انقلاباً كارثياً على الدستور، والديموقراطية في الكويت.

وحقق معي الرقيب، وسألني أسئلة غريبة، مثل: "من تقصد بهذه الشخصية؟" و"من هي بدرية؟" و"ماذا قصدت في هذه الجملة؟" ورغم أنه لم يكن من حق أو اختصاص الرقيب سؤالي، أو التحقيق معي إلا أنني كنت أجيب بأن هذه رواية، أي خيال، هذا عمل إبداعي، وليس منشور سياسي، لكنه طلب إحالة الكتاب إلى وزارة الإعلام، وهناك تم استدعائي من موظف قيادي، وتم التحقيق معي وتعنيفي بشدة، قائلاً في معرض صراخه علي: "نحن نعلم عن نواياك، ونعرف قصدك وأهدافك"، لم يسمح لي بالجلوس، فظللت واقفاً، ولم يسمح لي بشرح ماذا يعني الأدب، وكنت لا أعلم هل أنا في وزارة إعلام، أم في أمن الدولة.

ثم حولني إلى موظف أقل منه رتبة، وأبلغني أن الرواية ممنوعة من دخول الكويت، فسألت: "هل من الممكن أن أعرف سبب المنع؟" فقال لي: "ممنوعة لأنها ضد المصلحة العامة"، فسألت: "هل لي أن أعرف ما هي المصلحة العامة، حتى لا أكرر خطأي؟" قال: "نحن أدرى بالمصلحة العامة"، فطلبت كتاباً رسمياً بالمنع، فرفض إعطائي مثل هذا الكتاب، وطلب أن أعيد شحنه الرواية على حسابي الخاص، إلى أي جهة أرغب، فأرسلت جزءاً من الشحنه إلى الصديق الشاعر البحريني أحمد الشمالان، وجزءاً آخر إلى الصديقين المصريين محمد الجندي ومحمود أمين العالم، أصحاب دار الثقافة الجديدة.

وما هي إلا أيام، حتى انتشر خبر المنع، ولأن كل ممنوع مرغوب، بدأت عمليات تهريب الرواية، من البحرين والقااهرة ولندن وبيروت، ثم قام الاتحاد الوطني لطلبة الكويت، بتصويرها "فوتوكوبي"، فنسخت آلاف النسخ وزعت على الطلبة وأساتذة الجامعة، كما قام بعض موظفي الدولة وعمال النفط بتصويرها وتوزيعها بشكل واسع، ودرست لطلبة الأدب في جامعة الكويت، وأصبحت بدرية حديث الناس، ووصلتني رسائل من قراء عرب، يشيدون ببدرية، واتصل بي العديد من الكويتيين يشيدون بالرواية، وبعضهم قال ابكيننا وحمستنا، وجعلت الدم يفور في عروقنا.

وكتب عنها العديد من النقاد العرب، في مصر وسوريا والجزائر، والسعودية والبحرين، وقطر، أذكر منهم الدكتور على الراعي من مصر، في كتاب الرواية العربية، واعتبرها نموذجاً للرواية الكويتية، كما كتب محمد جمال باروت ووليد اخلاصي من سوريا، ولا أذكر الآن الكتابات الكثيرة عن بدرية، كما بلغني من شخص فلسطيني مقيم بالكويت، أن إحدى فصائل المقاومة الفلسطينية، استخدمت الرواية للتثقيف السياسي والتاريخي لأعضائها.

وعرفت ككاتب عربي من خلال بدرية، ورغم أنها ممنوعة من التداول داخل الكويت، إلا أن أصدعها كانت واسعة، وفي الكويت تضاعف عدد النسخ الأصلية والمنسوخة، لتفوق عدد النسخ التي طبعتها دار الفارابي، وأحياناً كانت تصدر عند اكتشافها في المنافذ الجوية والبرية، وفي إحدى المرات، واثناء عودتي من خارج الكويت، قال لي رقيب وزارة الإعلام في مطار الكويت: "لقد قرأت رائعتك بدرية، وكنت أتمنى لو كنت في مناوبتي، يوم منعها، لكنك سمحت بدخولها"، فابتسمت لأن الرقابة أسدت لي خدمة كبيرة، ودعاية مجانية بمنع دخولها، وتيقنت أن الشعوب تكره القيد والمنع والحظر، خاصة إذا تعلق الأمر بحريات الرأي والتعبير، وأنه لا توجد قوة بالعالم تستطيع تكميم فم الإنسان، ومنعه من الوصول إلى أي معلومة، وتزداد الصعوبة الآن، مع تقدم وسائل الإتصال، وتوافر المعلومات عبر الانترنت، فلم يبق أي مبرر لإدارات الرقابة في الحكومات العربية، فهناك أجهزة صغيرة، يمكن تلقيها بمئات الكتب الالكترونية، أي يستطيع الإنسان أن يدخل إلى أي مطار، وهو يحمل في جيبه مكتبة لا كتاباً، كما أن الهواتف النقالة يمكن تحميلها بالكتب.

ربما تكون بدرية هي العمل الإبداعي الكويتي الأول، الذي يمنح في الكويت، حسب ظني، ودائماً الأول في كل شيء يحمل نكهة خاصة، وطبيعة البشر الفضولية، تجعلهم يبحثون عن

المستور والمتواري والممنوع.

وتمر خمس سنوات على منع بدرية في الكويت، وأفاجأ باتصال من وزارة الإعلام، يطلب مني الحضور لاستلام كتاب إجازة رواية بدرية، وقيل لي لاحقاً أن إحدى الشخصيات الكويتية المهمة، قالت لمسؤول في وزارة الإعلام: "أليس عيباً أن رواية رفعت رأس بلدها في الخارج، وتمنع في بلدها"، وبعد أن نشر الخبر بالصحف، تلقيت العديد من المكالمات المهينة، وحضر إلى بيتي العديد من الأشخاص، يحملون معهم نسخ لبدرية، ويطلبون مني توقيعها، فقد كانوا يخفونها، كما يخفون منشوراً سياسياً.

لما أطلق سراح بدرية، كانت الطبعة قد نفذت منذ فترة، فأعاد الصديق محمد الجندي طبعتها في القاهرة، ونفذت بعد فترة قصيرة، وظل الطلب عليها لأكثر من ستة عشر عاماً، ولكنها كانت موجودة كسمعة فقط، حتى أن بعض الأجيال الجديدة من المثقفين، يقولون لي، أنهم سمعوا من آبائهم عن بدرية، فأدركت كم كبرت، وكم كبرت بدرية، وقبل سنوات قابلت أحد الشباب البحرينيين، وقال لي: "لي الشرف أنني كلفت بتوزيع بدرية، عندما كان عمري عشرة سنين"، وما زلت في البحرين بالذات، التي لي فيها صداقات تاريخية حميمة، ما زلت أواجه في بعض الأماكن العامة، بعض من يسلم علي، ويخبرني بأنه قرأ بدرية قبل عشرين عاماً. وكتب الصديق السوري محمد جمال باروت، في مجلة البيان التي تصدرها رابطة الأدباء في الكويت، دراسة عنوانها "إلى بدرية بعد إطلاق سراحها"، ولكن الطبعة الثانية لبدرية نفذت خلال أشهر قليلة، لكن رقابة الإعلام ظلت تصدرها في معرض الكويت للكتاب العربي، كلما أحضرتها دار الفارابي للمشاركة بها، رغم أن الوزارة سمحت بتداولها.

وفي تسعينيات القرن الماضي، طلب مني المخرج فؤاد الشطي كتابة سيناريو لبدرية، لأنه كان ينوي إخراجها كمسلسل تلفزيوني، وبالفعل أنجزت معظم الحلقات، ولكن العمل التلفزيوني لم ير النور قط.

وعندما صدرت الطبعة الثانية، رفعت إحدى العائلات الكويتية الكريمة، قضية علي لظنها أن بدرية تسجيل تاريخي، وليس عملاً إبداعياً يستند إلى فترة تاريخية، ووقائع عامة، بينما الشخص هم وحي الخيال، لكن محامي هذه الأسرة هو صديق لي، فاتفق معي بأن أشير في الطبعة الثالثة وما يليها من طبعات، أن الرواية وشخصها خيالية، أو أغير أسماء بعض المعالم، وبالتأكيد ليس لدي مانع، ولكن ما أن يطبع العمل، حتى يخلد بكل تفصيلاته، وأنا

أسف لأن بعض القراء لا يفرقون بين القصة، وبين التسجيل التاريخي، ولذا فكثير من الناس يظنون أنني البطل في جميع رواياتي وقصصي، بمن فيهم أساتذة في الجامعة، ولدي الكثير من الحكايات المضحكة في هذا الصدد، والأمر الآخر الذي يقع فيه بعض القراء، هو التعميم، فمثلاً إن كتبت عن شخصية نسائية وقعت في الخطيئة، يقولون لي: "كيف تكتب أن الكويتيات فاسدات أخلاقياً؟ فعلى هذا المقياس لا أستطيع أن أكتب عن شاب كويتي مدمن على المخدرات مثلاً، ورغم أن القصة الكويتية عريقة، وموغلة في القدم، أي منذ عشرينيات القرن الماضي، كما أن القراءة كانت عادة اجتماعية كويتية راسخة، إلا أن التراجع الذي منيت به الكويت على كل الأصعدة، خلق أجيالاً ذات أمية ثقافية وأدبية، لكن كل ذلك يعود مثل النسائم المنعشة، بعد أن نظن أنها لن تعود.

والآن عندما أقرأ بدرية، أتساءل: ما السحر الذي يكمن فيها، ويجعلها بهذا التأثير الشعوري العارم؟ وقد يكون الأمر مفهوماً بشكل أو بآخر لدى القارئ الكويتي، لكن ماذا عن النقاد العرب الكبار؟ عندما أقلب صفحاتها الآن، أجدني كنت قليل الخبرة، لكني كنت مفعماً بالأمل، وأجد في أصابع ذاك الشاب، التي كتبت بدرية، الكثير من الحب للوطن، والكثير من الإيمان بناس الوطن.

لماذا رغم بساطتها ما زالت تؤثر في حتى هذه اللحظة؟ لا أدري، لكن الأكيد أن بدرية هي جزء لا يتجزأ مني ومن حياتي، وأصبح الاسم جزءاً ملتصقاً بي كجلدي. بدرية رواية صغيرة، لكنها مليئة بالفتنة والطاقة، وها هي تعود إلى الدار التي احتضنت ولادتها أول مرة، إلى دار الفارابي.

ملحوظة:

حاولت ألا أغير شيئاً في الرواية، أو في لغتها، لأنها كانت تعبر عن حقبة تاريخية معينة، رغم كل الإلحاح الذهني على إعادة الكتابة.

وليد الرجيب

29 يوليو 2010م

ضوء:

بعد انتهاء بحثي وتحرياتي

بعد عودتي ..

بعد اثنتي عشرة سنة.

أمسكت بقلمتي و كتبت:...

- من عاش في حوّلِي في ذاك الزمان، لابد وأن يشعر بشعوري.. فحوّلِي المزيج من كل شيء .. مزيج من كل شيء.

حوّلِي المكان:

جنوب مدينة الكويت .. حيث مياه الآبار العذبة، و أشجار السدر المثقلة بالنبق.. مرتع طيور الربيع ومنتجعاتها .. ممر لسيول الأمطار .. و محطات لمستنقعات ما بعد المطر، الأراضي المنبسطة، المكسوة بالنوير والخبيز و اخضرار يأخذ بالألباب.. السماء الزرقاء .. صافية نقية، أو يسبح الغيم فيها بجذل .. الظلال المنعشة في الصيف .. و دفء المواقد و الحكايات في الشتاء ..

حوّلِي الزمان:

عندما كان حسن الظن أكبر .. والمساحات بامتداد أكثر .. وغزو الآلات الصفراء التي تدك الأرض تحفر وتهدم لم يحن بعد .. زمان الحب المذبوح.. والشعر كجرح مفتوح .. زمان الخرافة والرهبنة.. زمان الحوارية المتعرجة .. والحوائط النصف نصف .. طين واسمنت.. زمان أخاذ..

حولى بدرية:

لبدريه دخل كبير في صنع أيماننا .. و لأحداث الأيام دخل كبير في صنع وعينا .. ولبدريه مكانة كبيرة في نفوسنا .. لم نستطع أن نفسر هذا العشق الكبير لها .. كنا نشترك في حبها دون غيرة أو منافسة ، وكانت تحبنا جميعاً.. صبياناً و بنات ..

كل فتياتنا فيهن شيء من بدرية .. الشعر الفاحم، البشرة الحنطية الناعمة، الثغر الأثوي، الغنج والدلال غالبا الثمن، الروح المحبة للحياة، و الاستعداد للحب، و الاستعداد لقتل المحبوب حباً، النظرات الولهى، الرموش، الحواجب .. كل فتاة كويتية هي بدرية.. بدرية هي حبنا الأول والأصيل ..

(١)

قبل غروب الشمس خلف البيوت التي تقشر الاسمنت من على حوائطها فظهر الطين، تتحول الأعمدة الخشبية القادمة من المدينة، والمارة بحارتنا والذاهبة إلى جهة لا نعلمها، و التي تحمل أسلاكاً كهربية، تتحول هذه الأعمدة إلى شيء رهيب وداكن وعال، عند هذه الساعة المحددة، تظهر قطعان الخراف والماعز وكأنها تعرف طريقها، فكلما اقتربت من أماكنها تسرع الخطو، ويثار الغبار ويختل انتظام القطيع، و يضطر « أبو مجبل » راعيها أن ينادي بأعلى صوته ويصفر لها فتعدل وجهتها، حتى تصل إلى بيوتها، و يتلأأ بعضها بالدخول ليأكل بقايا الأوراق والأكياس قرب الباب، ويلج بعضها بسرعة على أمل أن يجد الشعير و نوى التمر المنقوع في الماء.

و ما أن يبتعد باقي القطيع، ويترسب الغبار المثار حتى نتجه إلى آثار أظلافها، فنضع إبهامنا في أفواهنا، ونضع أصغر أصبع على أثر أظلافها ونمتص، ثم نقسم بأن هذا أثر ظلف عنزة، و أن بها حليياً أكثر من غيرها، و أحيانا نتفل و نقول: « تف .. تيس، تيس » و بعد فترة من اللعب نلثفت إلى بعضنا: «شبعنا»، ثم نلعب لعبة عنيفة بانتظار أن تطل أمهاتنا وتناديننا للعشاء المكون من خبز ولبن رائب وتمر، ولا نكف عن اللعب خاصة عندما ينهض آباؤنا، إذ نمسك بنواة التمر، ونضع عليها عقدة النواة فتصبح كأنها رجل يلبس قبعة ونغني:

- «عنجريزي بوتيلة .. عساه يموت الليلة»..

علمتنا بدرية هذه اللعبة، كما علمتنا جميع الألعاب، وعندما سألتها:

-لماذا نتمنى أن يموت «العنجريزي»!؟

قالت وهي ترسم على الرمل عروساً وعريساً:

-فهد شاهدهم في المكان الذي يعمل به.. يقول أن وجوههم حمراء، و عيونهم خضراء وشعرهم أصفر، ويمسكون عصي خيزرانية بأيديهم، وأنهم أتوا من مكان بعيد.. أبعد من الأماكن التي يسافر إليها أهلنا، ومع ذلك فهم يأمرن وينهون.

خربت مارسمته و نحن نتابع يديها ثم قالت:

-فهد لا يحبهم ..وأنا لا أحبهم ..

فرحنا نغني و نصفق:

- «عجريزي بوتيلة.. عساه يموت الليلة»..

و بدرية ترقص بمرح بيننا ..

هكذا كل ليلة نهرع إلى الحارة بعد العشاء، بانتظار الآخرين الذين يأتون تباعاً، وهم يكملون عشاءهم في الطريق، الذي يكون عادة لفة خبز بتمر، أو لفة خبز بجبن أو بصل، أو لفة خبز بدون شيء، و أحياناً يحملون بضع تمرات في جيوبهم، يتواردون واحداً تلو الآخر بانتظار بدرية التي سوف تعلمنا لعبة جديدة، أو لتحكي لنا حكايات لطيفة.

شهية كالفاكهة بدرية، عذبة الحديث، تظهر على وجنتيها غمازتان عندما تضحك، وعندما تضحك تطير قلوب الصبيان كعصافير الربيع، و تغرق الفتيات بغيرة لا محدودة، ويحاولن أن يفعلن مثلها، فيجدلن شعورهن جديلة واحدة طويلة إذا فعلت ذلك، و يجدلن شعورهن جديلتين طويلتين و ينزلن شعورهن على جباههن إذا فعلت بدرية ذلك، و يقلدنها بالحديث، و إذا تحلق الصبيان حول بدرية يجلسن و يرسمن على الرمال، أو يعدن جدل أطراف شعورهن ساهمات غيورات من فوقها عليهن.

كانت بدرية أكبرنا سناً، مرحة، جريئة، لانذكر أنها خجلت غيرة مرة واحدة، عندما سألتها أحدنا بعد أن لاحظ أن صدرها بدأ يتكور:

- «صدرك فيه حليب ؟» ..

يومها احمر وجهها، و ضربت الفتيات أرجلهن على الأرض غيرة، و ذهبن إلى بيوتهن مبكرات، وهناك تفحصن صدورهن عندما إختلين إلى أنفسهن.

لم نكن نعرف لبدرية أمماً ولا أباً، فنحن نراها في كل البيوت، نتناول الغداء عند أحد البيوت، والعشاء في بيت آخر، وعندما يتأخر الوقت كانت تنام في أقرب بيت، ولما سألنا أهلنا:

-ابنة من بدرية؟! ..

أجابوا وكأنهم لا يخفون سراً:

-ابنتنا جميعاً..

وحذرونا من أن نسألها نفس السؤال:

- «يمكن تزعل»..

ولذا لم نسألها وأصبح هذا الأمر ميزة من ميزات بدرية، التي لا يملكها أحد منا، وانتشينا بالغموض، و ازداد هيامنا وتعلقنا بها، و حتى أهلنا يحبونها، فهي تساعد الجميع في الأفراح،

فتمشط شعور البنات، و تكنس أفنية المنازل وترشها بالماء، وتوزع المرطبات والقهوة وتسخن الدفوف، وترقص، وتبعد الصبيان الفضوليين .. وعند المآتم أيضاً تقوم بالواجب فتواسي أهل الميت، وتقوم بجميع ما يحتاجه أهل البيت.

و كانت النساء يبعثنها لتأتي بالحاجات من الدكان، أو من جارة بعيدة، كما كانت الفتيات العاشقات يرسلن معها مناديلهن، أو رسائل غرامية مكتوبة أو شفوية إلى الشباب الذين يحبونهم، كما كانت ترتب مواعيد اللقاءات، وتصالح بين المحبين المتخاصمين، وكانت سبباً في تسهيل زيجات كثيرة في الحي، كما كانت تساعد الداية « ام شملان » عندما يأتي الطلق إحدى نساء الحي، ويحين وقت ولادتها، تغلى الماء وتمزق الخرق، وكانت أول من ينقل الخبر إلى الزوج - الذي يحرص على أن يبدو غير مكترث - كي تحظى بالبشارة.

كنا نجدها في كل مكان .. في البيوت، على الشاطئ، في الحارة، في أحلامنا، حتى أصبحت بدرية جزءاً منا، ملتصقين بها كحياتنا، ملتصقة بنا كجلودنا.

-أت بدرية .. أت بدرية ..

اقتربت بثوبها الأحمر:

- ماذا تريدون أن تلعبوا؟.

فتعالت أصواتنا و تقافزنا، واختلفنا و غضبنا من بعضنا، فالفتيان يردن لعبة « الثعلب فات »، وبعضنا يريد حكاية، و عددنا بعض الألعاب التي نحبها، ولكن بدرية قالت بطريقتها المشوقة، المملوءة سحراً و خيالاً:

-في هذه الليلة ينعس القمر ينعس .. فتأتي غيمة بيضاء فيبتسم نائماً، ثم تأتي غيمة صفراء فيتململ، ثم تأتي غيمة حمراء فينتشي، ثم تأتي غيمة سوداء فيصحو خائفاً ويدرك أنه كابوس و غيمة وتعدي، وأن الشمس في الصباح، ستبدد هذه الغيمة فيزهو بنوره مرة أخرى في ليالي العشاق و البحارة.

صمتت و نظرت في عيوننا ثم قالت ببطء قصدت به افزاعنا:

-أريدون أن تلعبوا لعبة « الخروف المسلسل »؟.

تراجع بعضنا إلى الخلف وشهقت الفتيات فأردفت بدرية:

-أريدون .. ها؟..

هزنا الرؤوس فعلمتنا وحفظنا واستمتعنا بما سنفعله فاخترت أقبحنا، وأمسكت طرف

«دشداشته»، وبدأنا اللعب فأتى صوتها الشجي شجياً:

- «خروف مسلسل».

ونحن نرد بصوت واحد:

- «هدوه».

- «تراه ياكم».

- «هدوه».

- «خرب هواكم».

- «هدوه»

- «في ريوله قراحة».

- «هدوه».

- «كبر البراحة».

- «هدوه».

ثم يترنم صوتها كنواح الأم التكلى، يشق سكون الليل:

- «إذا جاتكم الغيمة البيضة شتقولون»؟.

فنرد مقلدين صوت الخراف:

- «ما..ء».

- «و إذا جاتكم الغيمة الصفرا شتقولون»؟.

- «ما..ء».

- «و إذا جاتكم الغيمة الحمرا شتقولون»؟.

- «ما..ء».

ثم فتحت عينيها وحملت فتراجعا:

- «وإذا جاتكم الغيمة السودا .. شتقولون»؟.

فصحنا بفرع:

- «ما..ء ما..ء».

ثم تركت دشداشة الصبي فانطلق نحونا، و ركضنا هاربين وانتشرنا و بكت إحدى الفتيات فزعا، و سقط أحدنا على وجهه فتعفر بالتراب ثم انطلق ثانية عندما اقترب منه الخروف

المسلسل.

وبدرية تصيح كالأم:

-«اهربوا.. اهربوا..»

اقترب الخروف المسلسل من أضعفنا فقال:

-«ما أعب .. بطلت..»

فتركه واتجه إلى أصغرنا سناً، وبطحه على الأرض وضربه، ثم اتجه إلى الفتيات فغطين وجوههن بأكفهن وأصقنها بالحائط وهن يصرخن، و بالت إحداهن على نفسها، ولكنه لم يستطع أن يقبض على الباقيين منا، فقد اختبأنا خلف أشجار السدر، وعندما اقترب يبحث عنا وهو يشخر كالوحش، انقضضنا عليه، وأوسعناه ضرباً فبكى وانتهت اللعبة ..
كان هذا قبل أن تختفي بدرية أول مرة ..

(٢)

ارتفعت الأيدي في سوق الخضار المسقوف تحيي «بونشمي»، وترك بعض الباعة زبائنهم ينتظرون وانطلقوا يقبلونه ويصافحونه، واستغلينا فرصة غفلة الباعة، وملأنا جيوبنا بسرعة بالطماطم والخيار، وانفعل بعض الباعة فملأوا أكياساً من الطماطم والفجل والخيار، وسلموها لعيسى الذي كان يمشي بقربه، يعينه إذا تعثر ويبعد الحمالين عن طريقة، وسلمها هذا إلى الصبي الذي كان يمشي خلفهم، ولاحظ الناس أنه صبي جديد إضافة إلى الصبيان الذين يعملون في خدمة «بونشمي».

وباع الباعة خضارهم بسعر زهيد، ولم يجادلوا الزبائن عندما طلبوا سعراً أقل. و كنا نتبعه ونقول له كما يقول الناس:

-الحمد لله على السلامة.

ونرفع راحتنا فوق رؤوسنا كما يفعل العسكر، وهو بالكاد يحرك شفثيه اللتين ظلنا مفتوحتين لاستيعاب مزيد من الهواء، الذي يدخله ويخرجه بسرعة، توحى بأن المسافة القصيرة التي قطعها من مسجد السوق قد أرهقته، حيث صلى الجمعة بعد أن تقدم إلى الصف الأمامي خلف الإمام مباشرة، الذي أصر أن يصلي «بونشمي» جالساً، وعلل بصوت مسموع من الجميع:

-لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. وأنت رجل مريض ومرهق من رحلتك.

وما أن انعطف «بونشمي» في سوق العطارين، حتى أشعل بعضهم بخوراً و قربه من أنفه، استنشق «بونشمي» وهو يدفع الدخان براحته تحت «غترته»، و ناحية صدره ليبخر ملابسه، و انطلقت زغرودة قصيرة خجلة من امرأة جريئة، و قالت من خلف غطاء وجهها الأسود الشفاف وهي تشير بيدها الخشنة المحناة بحناء غامقة:

-الحمد لله على سلامتكم يا بونشمي .. يحفظك الله من كل شر.

التفت بونشمي ناحية الصوت النسائي، و كأن شيئاً لوى عنقه، اقتربت منه «رومي»، و غطت راحة يدها بطرف عباؤها، و صافحت أصابعه السمراء الطويلة، أطالت المصافحة وضغطت على كفه ضغوطات خفيفه، ارتعش لها جسده، بينما كانت تدعو وترفع رأسها إلى السماء تارة، وكفها بغية أن يرى الحناء، و تعدل من وضع عباؤها تارة أخرى، كي يرى جزءاً مما خلف العباءة:

-الحمد لله الذي أرجعك إلينا سالماً غانماً .. عسى الله أن يبقيك لذويك ومحبيك .. ويطيل عمرك
و يعافيك، ويحرسك من عيون أعدائك.

نظر إليها نظرة ذات معنى، و نظرت إليه نظرة عتاب، خلص كفه من أسر كفها، وغمغم
بكلمات أشبه بالحشرجة:

-الله يسلمك .. الله يعافيك..

و أكمل طريقة وتركها تنظر إليه فترة، وهو يسير بتؤدة ونفوذ، وقد انحنى قليلاً بفعل الزمن
ونحل وجهه الأسمر القاسي تحت لحيته البيضاء قصيرة الشعر، و شاربه المقصوص
والمشذب بعناية فائقة.

**

لم يكن «بونشمي» ليلقي هذا الاستقبال وهذه الحفاوة لولا نفوذة وسطوته، فهو يملك معظم
الدكاكين في السوق بما فيها سوق الخضار، و سوق السمك، و سوق العطارين، و سوق
اللحم، و سوق الحلوى، ولديه بيوت كثيرة في أنحاء الكويت يؤجرها على الناس، ولديه سفن
خشبية، كما يسيطر على تجارة الأخشاب والذهب ويملك أراضي، فهو بحق شيخ البر والبحر
كما يطلق عليه البعض، و يتناقل الناس أن له يداً في «شركة الجاز»، كذلك يستورد الإسمنت
و المواد الكهربائية.

و رحلته التي دامت ثلاثة أشهر إلى البصرة، كانت بهدف تحصيل ثمن بلح النخيل الذي يملكه
هناك، ولزيادة مساحة بساتينه، وبالطبع لم يكون هذه الثروة وحده، فهو غني ابن غني ابن
غني.

همست النساء بأنه تزوج هناك من عراقية، و تميزت إحداهن بمعرفتها لأوصاف الزوجة،
التي قالت أن أخت زوجة أخيها قالت لها:

-بونشمي تزوج بنت الرابعة عشرة، بيضاء كالحليب، ناعمة كالحرير، عيناها كعيني الغزال،
وفمها كخاتم سليمان، وشعرها أسود كالليل يصل إلى تحت ردفها .. ممتلئة مدللة بنت شيخ
شيوخ العشائر .. «بضة غضة .. إذا وقع البرغوث على خدها قضه».

ورغم أن هذا الوصف يشبه وصف الخطابات الزائف والمستهلك، والذي ينطبق على كل

عروس يسأل عن أوصافها، إلا أن النساء عممه وزدن عليه، ولكن المسألة ظلت في حيز التخمينات.

و تهامس الرجال حول الصبي الجديد الذي أحضره بونشمي معه من الزبير، لمحوه وقاسوا عمره وتفرسوا في ملامحه، وحسد البعض بونشمي.

-ألا يكفي الصبيان الذين يعملون لديه!؟

فرد أحد الرجال:

-«قط فلوسك في الشمس .. و اقعدي في الظل» .. ما قيمة الفلوس إذا لم تمتع صاحبها؟.

ولكن لم يجرؤ أحد على التصريح بأي شيء أمامه .. أو أمام مساعده وكاتبه عيسى.

**

تبعناه و كلنا أمل أننا سنحصل على شيء ذي قيمة.. بضعة «آتات» ربما ، **فقد** طبع في أذهاننا أنه مصدر الخير، وذو اليد النديه كما يقال عنه، وقد وعينا ونحن نسمع أنه أقرض فلاناً مبلغاً من المال، وأن فلاناً كان على حافة الجوع فأنقذه «بونشمي» ورهن بيته.

**

نذكر من الأعياد و بالأخص عيد الأضحى أن الأهالي كانوا يشتركون في مائدة تحتوي طبخ بيوت الحي، تمتد خلف مسجد «حولي» من أوله إلى آخره، بينما تمتد مائدة بونشمي وحده من آخر المسجد وحتى «البحرة»، التي سميت كذلك لأنها تسيل حافرة مجرى واسعاً كالبحر في موسم الأمطار، و نعتقد أنه لولا «حوطة بو عيسى» المليئة بشجر السدر، والتي كانت تحد البحرة من الشرق، لامتدت مائدة بونشمي إلى مالا نهاية، فقد كان صبيانه ينتظرون أهالي الحي ليفرشوا مائدتهم، ثم يبدأون بفرش مائدة أضعاف طول الأولى، و كنا نأكل حتى نتخم ولا نكتفي بالصحن الذي أمامنا، و لكننا كنا نتنقل إلى أطباق كثيرة بعد أن يقوم الرجال لنتذوق أصناف الطعام التي بذلت النسوة مجهوداً ضخماً فيه، فمن تنظيف لحم الخراف التي ذبحت إلى تقطيعها وطبخها.

ونذكر قبل ذلك ذبح الأضاحي .. فحيثما نرى «ضاوي» وهو يحمل سكاكينه و ساطوره الحاد نتبعه على الفور .. وحتى الخراف ما أن تشاهده حتى تحاول الهرب، و كأنها تعلم أنه قادم لذبحها، فتفر من بين يديه، ونجدها فرصة لملاحقتها والقفز عليها وإمساكها من فروها المجعد، ثم نجرجرها من آذانها و قرونها، بينما يصيح علينا الكهول بلحاهم البيضاء:

-«شوي شوي يا عيال بالهون على البهايم» ..

ويحملها ضاوي بين يديه السوداوين الضخمتين، كأنها قطط صغيرة، ثم ينزع عنه الباطو الطويل الكاكي من مخلفات الحرب العالمية، ويقلبها دون مشقة ويلوي أعناقها بعد أن يبرك على أرجلها فيشل حركتها، ويبسمل بعد أن يتأكد أنه باتجاه القبلة وسرعان ما ينطلق الدم من حنجرة الخروف المفتوحة إلى مسافة بعيدة. وبعد أن يعلق الذبيحة و يفتح بطنها .. يتذوق كبدها الساخن النيء، يترك الرجال ليكملوا سلخ الخروف، ويتجه لذبح خروف آخر وقد ازدادت عيناه احمراراً، وتلوثت ملابسه و يداه بالدم.

غالباً ما يضحى أهل البيت في حولي بخروف واحد أو اثنين حسب حالتهم، ولكن بونشمي يجمع أضاحيه في زريبة مؤقتة من التنك، وقد تتكون من عشرة إلى خمسة عشر خروفاً، وأحياناً يفاجئنا فيضحى بجمل أو اثنين، و هنا تكون المتعة والدهشة الحقيقية لنا.

كنا نتسابق إلى بونشمي لنبارك بالعيد، حرصاً على العيدية الكبيرة، التي يوزعها عيسى علينا بعد أن يأذن له بونشمي:

-أعطهم يا عيسى، يستاهلون.

**

ولكن عيسى هذه المرة لم يعطنا غير ضربات خفيفة على مؤخراتنا بالخيزرانة التي يحملها بيده كي يبعدنا عن بونشمي، ناهراً إيانا دون أن يرفع صوته:

-«ياللاً .. ابعدوا .. من هنا .. هيا»..

فركضنا **باتجاهات** مختلفة ، ثم تجمعا مرة أخرى ..

(٣)

كان ربيعاً بهيجاً ، جاد بعد موسم أمطار غزيرة ، وكان زواج الأرض بالمطر أنجب طفلاً جميلاً بريئاً .. انتثر النوير بألوانه الفرحة ، الأبيض و الأصفر و البنفسجي ، وفرش الخبيز أوراقه العريضة لهواء الربيع الرقيق، واخضرت أوراق السدر وثقل حملها بالنبق، وأتت طيور الربيع هاربة من برد الشمال لتنعم بشمس الكويت الدافئة العذبة، و راحت تتجمع على الأشجار، أو تنتشر على الأرض .. يقترب الذكور من الإناث و تبتعد مغردة بدلال.

زحف صبي على يديه و رجليه، وما أن أخرج «نباطته» من جيبه ووضع حصاة في السير وشده كي يطلقها، حتى طارت العصافير فجأة مرفرفة بأجنحتها إلى السماء التي سبحت بها غيوم قطنية متناثرة.

و تقافزت الحملان الصغيرة البيضاء عندما همت أن تشرب من مستنقع المطر فتشكلت دوائر فيه .. و استرخت النعاج بعدما شبعت من العشب الأخضر الطري وامتلات أذنانها بالحليب، و حكّت أجسامها بجذوع الشجر وبالحوائط الخشنة، ونامت وهي تعيد مضغ ما أكلته وتطرد الذباب بتحريك آذانها بكسل **لذيذ**.

و أحببت الفتيات فتيناً يعرفونهن و فتيناً يحلمن بهم، وجلست النساء وتحدثن عن أمور الولادة وهن ينظفن الرز من الشوائب قبل طبخه، و أظن الجلسة للاستمتاع بدفء الشمس، و نشر بعضهن أغطية الفرش فوق أسطح المنازل كي تطرد الشمس بقايا البراغيث ورطوبة الشتاء.

و ضاقت صدور الناس في المدينة و تمللوا من بيوتهم في هذا الموسم واتجهوا إلى أحضان الطبيعة الخضراء وأقمرت المدينة.

لم يكن هناك من هو أسعد منا، فمنذ الفجر و برنامجنا حافل بصيد العصافير والخوض في مياه الأمطار بعد أن نرفع الدشاديش وندخلها في ملابسنا الداخلية أو نربطها على وسطنا ..

ثم نبحت عن ثمار «الطرثوث» و الكمأ.. و نصيد الجراد و نجمعه في أكياس الخيش، و عندما يحل المساء و تلمع النجوم في السماء و تصبح النسائم أكثر برودة، نشعل النار لشبي الطرثوث ولسلق الجراد استعداداً للألعاب الليلية، و قبل النوم نسمع حكايات عن الحب و البحارة و الفرسان و الجن، ثم ننام في أماكننا منهكين.

**

أما بدرية فقد كانت عروس الربيع، اقتربت من فهد الذي كان يصلح دراجته الهوائية .. نظرت إلى جبهته المجروحة وملامحه السمراء التي كانت ترسم عليها ملامح الرجولة المبكرة، ثم تقدمت مادة يديها بصرة صغيرة:

أحضرت لك «زلابية»..

لم تبح له بحبها ولم يبح لها بحبه، إلا أن الحي كله يعرف، كانوا يعرفون من لهفتها عليه عندما يعود من «الأحمدي» حيث يعمل في شركة النفط .. كانوا يعرفون من اضطرابها واحمرار وجهه عندما تلتقي عيونهما .. لم يكونوا يقولون: بدرية تحب فهد .. أو فهد سيتزوج بدرية، ولكنهم كانوا يصيحون:

بدرية بدرية .. رجع فهد من الأحمدي..

أو كانوا يعطونها «زلابية» أو حلويات أخرى قائلين:

هذه لك ولفهد ..

وإذا خاطت إحدى النساء فستاناً لها تناديها:

قيسي هذا الفستان .. إذا كان ملائماً، إلبسيه عندما يرجع فهد غداً..

هكذا كانوا يعتبرون بدرية وفهد حبيبين، و هكذا كانوا يعبرون عن مباركتهم لهذا الحب. وبدرية التي قرفصت قرب فهد، بدت من بعيد زاهية بفستانها الأحمر ومن حولها النوير، نظرت إليه وهو يأكل الزلابية ثم سألت:

حلو؟..

فهز رأسه و ابتسم بامتنان. التقت نظراتهما وبقياً كذلك لحظات هبط خلالها طائر «الزرزور» قريباً جداً وتحركت عيناه باضطراب عندما أحس بأنه هبط في مكان خطر وتلفت بغباء كأنه

يسأل نفسه: «ماذا أتى به إلى هنا»؟..

ثم طار فجأه عندما حرك النسيم شعر بدرية..

هل يؤلمك الجرح؟

قالت و مدت أصابعها برقة إلى الجرح دون أن تلمس خوفاً من أن يؤلمه فأجاب:

لا ..

ثم استدرك:

في الليل فقط ..

قالت بعد صمت قصير:

هل رأيت وجه الذي جرحك؟..

رد وهو يواصل إصلاح دراجته:

كلهم يتشابهون ..

كانت تريد أن يحكي لها ما حدث بالضبط، ولكنه لم يشبعها ولذا سألت:

ماذا حدث بالضبط؟ ..

فحكي لها حادثة سينما الشركة ..

(٤)

هي تعرف أن فهد كبير أخوته .. والده مات أثناء غرق السفينة الخشبية التي كانت تحمل البحارة إلى موانئ عديدة بحثاً عن التجارة، وفي ليلة لا تشبه الليالي الأخرى، كانت السماء تتحول إلى نهار بفعل وميض البروق، و كانت الأمواج تلطم السفينة دون رحمة .. في هذه الليلة الجهنمية غرق والده مع جميع البحارة، و ظل فهد ووالدته و إخوته بلا معيل، ولولا «فلاح» الذي أخبره أن بونشمي يبحث عن رجال ليعملوا « بشركة الجاز»، لماتوا جوعاً..

**

ويذكر فهد تلك اللحظة عندما كان بونشمي جالساً على كرسي في ظل شاحنته، وكان الرجال وبينهم فهد يقرفصون تحت الحائط في الشمس .. وكان عيسى يسجل الأعداد والأسماء، بينما أحد أعوانه يعد ويسأل الرجال عن أسمائهم .. و عندما وصل إلى فهد قال:

- أنت .. أخرج من هنا.

- وقف فلاح في الحال قائلاً:

- لماذا؟! .. أنتم تحتاجون إلى رجال يعملون و هذا رجل.

- قال عيسى:

- ولكنه صغير.

- بيد أن فلاح خرج من بين صفوف الرجال متجهاً إلى عيسى:

- صغير؟! .. هذا رجل ولكن بنيته قصيرة.

- التفت عيسى ناحية بونشمي فأسرع فلاح بنغمة أخرى:

- يا بونشمي .. هذا فهد ولد ناصر البحار .. والده رحمه الله كان رجلاً و نعم الرجال ..

- تعرفه، تربى في عزك وكان يعمل على سفنك. وفهد اليوم عائل أسرته و أكبر إخوته .. ليس

- لديهم إلا الله ثم أنت، وهو يريد أن يعمل وأن يكسب لقمة بعرقه، بدل الاعتماد على مساعدة

- الناس و انتظار عطفهم.

- وكان بونشمي خافضاً رأسه كمن يفكر بكلام فلاح ولكنه في الحقيقة كان يشعر بالسأم، ولذا

راح يراقب زخرفة نعاله النجدي الجديد، لكن فلاح لم يكن يريد أن يسكت حتى يحصل على موافقته:

- فهد قوي البنية، و رجل من ظهر رجل، يستطيع تحمل مشاق العمل و ...
- لا بأس.

- لم تكن مسموعة ولذا استفسر فلاح:
- نعم؟

- أقول لا بأس.

- عسى الله أن يبقيك ذخراً.

- ولكن بأجرة أقل.

- ولكنه يا بونشمي لا يقل كفاءة عنا.

- فرفع بونشمي كفه دليلاً على أن ذلك «آخر كلام»..

- فارتفعت أصوات الرجال:

- «يا فلاح شي أهون من شي».

- «ما قصر بونشمي».

- «يكبر و تكبر كروته».

- ابتسم فلاح لفهد و غمز بعينه بمعنى: «نجحنا بالتفاوض».

- ثم أقل العمال في شاحنة بونشمي وابتعدت عن سور الكويت الذي راح يصغر و تصغر بواباته، و تصغر بيوت و مآذن المدينة.

**

- وفي موقع العمل رمت الرافعات أكواماً من الحديد قرب مساحات من الإسمنت، وطلب من العمال تشييد مخازن فوقها..

- حمل البحارة السابقون الحديد على ظهورهم، و تعاون أثنان في حمل قضيب من الفولاذ، و استخدموا عباراتهم التي كانوا يستخدمونها في البحر:

- « هيا ملي .. هيا ملي ».

وكأنهم يحنون إلى حياة البحر التي تركوها دون رجعة وأصبح المكان كخلية نحل .. وارتفعت أصوات أغاني البحارة و تصفيقهم .. و هزّ فلاح كتفيه بنشوة وهو يصيح مشجعاً:
« عاشوا .. عاشوا... ».

واختلطت أصوات الأغاني بالنداءات بأصوات المطارق الحديدية، واحتكاك الحديد بالحديد، فازداد العاملون نشوةً و نشاطاً.

أما فهد فقد كان قريباً من فلاح الذي راح يساعده في الحمل، و يعلمه كيفية أحكام غلق الصواميل، فكان يخبط على ظهره إذا أحسن العمل قائلاً:
« كفو ».

أو يخفف عنه إذا لم يستطع الحمل:

« خلها عنك .. ثقيلة عليك .. الرجال ما قدرت عليها ».

ولكنه في المقابل يحملها كأنها قطعة كرتون ..

فلاح كان بحاراً جيداً و عاملاً جيداً.

تقاطر العرق من وجوه العمال، تبللت آباطهم، وظهورهم، و أحكموا رباط «غترهم» على رؤوسهم، وازدادت أنفاسهم لهاثاً، ولكنهم ظلوا يعملون بنفس الهمة وفلاح كان يلتفت ليشيع في الجو نشاطاً ومرحاً..

« يعطيك العافية يا بو مساعد .. شوف هالحر العطر .. الله ياخذه شطوله ».

مشيراً إلى مستر هندرسون الذي كان واقفاً على حصانه يقتل شواربه، سعيداً بنشاط العمال:
إذا استمر نشاط العمال هكذا سننجز المخازن في فترة قصيرة، ونباشر في بناء « عرب فلج ».

قال ذلك لمساعدته الهندي وأردف:

ونستطيع أن نختار بعض النابهين من هؤلاء العمال كي نعلمهم العمل في استخراج البترول.

ثم نفت دحاناً بعدما امتص غليونه، و حرك الحصان رجله مللاً وتعباً من الوقوف الطويل، وبسبب تراكم الذباب حول عجزه.

ولكن الغناء خفت في نهاية النهار، وأصبحت الأذرع ترتجف عندما تحمل أثقالاً .. وأصبحت

الحركة أقل عندما اتجهت الشمس إلى الغرب .. وتباعدت وتباطأت طرقات الحديد .. وأصبحت الملامح أكثر انقباضاً عند بذل الجهد .. وكثر السعال .. **اقتربت شاحنة فعلا صفير من الملاحظ الهندي**، فقال العمال القدامى إن ذلك يعني انتهاء العمل لهذا اليوم.

صعد العمال إلى الشاحنة وسارت بهم وهم يتهزهزون فوقها صامتين منهكين. ولم يتحدث العمال قبل النوم، بل ناموا في عنابرهم الطينية المسقوفة بالبردي كالقتلى، وحمل فلاح فهد بعد أن نام في الشاحنة. وفي الفجر استيقظوا على صوت « التتكر » وهو يملأ برميل الماء عبر فتحة في الجدار الطيني، ثم ينتقل إلى العنبر التالي، وهكذا. واستمرت الأيام التالية على هذا المنوال، و أصبحت الأشهر كالسنوات، نفس الروتين إلا أن الأعصاب أصبحت أكثر توتراً، والاجازات نادرة.. و طرد المساعد الهندي عدداً من البحارة الذين قل نشاطهم بسبب تعبهم أو مرضهم أو كبر سنهم، وأصبحت الأشياء والأصوات متشابهة، وأحيانا تثير الاستفزاز .. وتشاجر العمال مع بعضهم، واستخدم الملاحظون عصيهم في أكثر من مناسبة، وأصبح دق الحديد كأنه دق في أعصاب العمال ..

إلى أن أتى من يخبرهم بأن هناك سينما تعرض كل ليلة، وشرح فلاح لفهد معنى السينما لأنه رأى مثلها أثناء رحلاته إلى الهند، وكيف يمكن مشاهدة الناس يتحركون على الحائط، وكيف شاهد أفلاماً كثيرة مثل عنتر بن شداد الذي حارب جيوشاً كاملة في سبيل الظفر بعبلة.. فهد الذي اتسعت عيناه لهذا الحديث ألح علي فلاح:

لنذهب .. أريد أن أشاهد السينما.

فقال الرجل الذي أخبرهم بأمر السينما:

ممنوع .. فقط ليلة للانجليز و ليلة للهنود، أما العمال فمحظور عليهم دخولها.

و لما رأى فلاح خيبة أمل فهد وانكساره قال:

نعم لنذهب .. سنجد طريقة لمشاهدة الفيلم.

وهنا ظهرت أصوات محبطة، إذ قال نعمان:

لا فلاح .. هذا تهور، و ذهابنا إلى السينما سيثير المشاكل، وقد يطردوننا من العمل،

ونحن نعيلاً أسراً ونحتاج لهذا العمل .. نحن لم نصدق أن نتخلص من البحر وأخطاره ونجد عملاً ثابتاً على اليابسة.

فاهتزت رؤوس كثيرة موافقة:

« مافي داعي .. عسانا ما شفنا هالماخوذة».

فحقد فهد على نعمان كثيراً.. ولكن فلاح قال:

« يا نعمان .. أخطار البحر وأهواله كنا ومازلنا قدها، ومن غير شركة الجاز هم

مستعدين نصارعها، لكن لا تقول لي أن أكو شي على أرضي ينمنع عني ويستفيد منه الغريب ..».

طأطأ الرجال رؤوسهم .. فالتفت فلاح إلى فهد:

« قوم يا فهد .. إحنا رايعين للسينما، اللي بيحي معانا حياه الله، واللي بيامن على نفسه

ينام.. وعلى العموم إحنا مو قاصدين شر».

شد أزراره على وسطه .. خرج وتبعه فهد .. ثم تبعه الجميع بمن فيهم نعمان، واتجهوا مجموعة كبيرة من العمال تبدو في الظلام كتلة واحدة تتحرك.

وصلوا إلى مكان السينما فإذا هي سياج من « الشينكو » يجلس داخله كثير من الانجليز وعائلاتهم.. ولمح العمال بعض « الغتر و العقالات .. اقتربوا من البوابة وهي عبارة عن فتحة في السياج مغطاة بقطعة قماش.

استوقفهم رجل بلحية بيضاء يلبس ملابس رسمية كملابس العسكر:

إلى أين يا جماعة؟ .. ممنوع دخولكم.

فبادره فلاح:

« مسآك الله بالخير يا بوصالح .. ودنا نتفرج على الفلم .. الولد عمره ماشاف سينما

ووده يشوف ».

تعلم يا فلاح أنني لا أستطيع أن ادخلكم .. « المعازيب موكدين عليّ ما أدخل أحد من

العمال الكويتيين .. لا تورطوني معاهم».

ربت فلاح على كتفه قائلاً:

« عيّن خير يا بوصالح .. احنا بس نبيك تخلينا نطالع من ورا السور ».

« من ورا السور ما يخالف .. بس وصّي الجماعة أنهم يطالعون من غير ما يحس فيهم

الانجليز .»

فرد بومساعد:

« لا تخاف يا بوصالح .. نطالع من بعيد لبعيد، ونتوكل على الله قبل لا يخلص الفلم.»

أخذ العمال يبحثون عن أشياء ليعتلوا عليها كي يروا من خلف السور، ورفع بعضهم بعضاً، وحمل فلاح فهد على كتفيه، ولكن تلك لم تكن أوضاعاً مريحة للعمال فدفعوا شاحنة كانت قريبة حتى أوصلوها قريباً من السور ثم اعتلوا و ظلوا يشاهدون الفلم وهم واقفون فوقها . وكانت مشاهدة الفلم أمراً ممتعاً لهم فضحكوا تارة وعلقوا عدة مرات مما أثار انتباه الانجليز داخل السينما .. تدمروا وأخبروا بوصالح أن يبعدهم، فذهب إليهم بوصالح يرجوهم أن يبتعدوا قليلاً ويحافظوا على هدوئهم، فهدأ بعضهم بعضاً ووعدوا بوصالح أن يكونوا أكثر حذراً، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على وعدهم، وخاصة أن نعمان كان يدفع العمال ليشاهد الفلم جيداً:

ابتعد قليلاً .. ما أشوف يا أخي .. دعوني أنفذ إلى الأمام.

انتظر ستسقطنا يا نعمان.

مع الوقت جلس العمال على حافة السور الحادة، وشكلوا ازعاجاً حقيقياً للانجليز وخاصة عندما وقع أحد العمال بسبب تدافعهم داخل السينما، فغضب الانجليز كثيراً واستثاروا لهذه الفوضى، وصرخوا على العمال وشتموهم باللغة الانجليزية وبالعربية المكسرة و طلبوا منهم أن ينزلوا و يبتعدوا، ولكن العمال لم يستجيبوا، فاتجه كبير الموظفين الانجليز إلى بوصالح وصرخ في وجهه ولامه على هذه الفوضى و صفعه على وجهه العجوز بشدة.

فسقطت دموع بوصالح ليس من ألم الصفعة ولكن من شدة الذل والاهانة، واتجه إلى العمال واطعاً كفه على صدغه، قال وهو ينشج مثل الاطفال:

« رضيتوا الحين .. أنا ربيب البر والبحر أنهان وسط أهلي.»

فاحمرت عيون البحارة و انتفضت عروقهم، و تشنجت أذرعهم وارتفعت صدورهم وانخفضت بقوة، وملأت النخوة رؤوسهم، وتنادوا وقال فلاح:

« عند وجهك يا بوصالح .. ما تنزل دمعة على شيباتك وأنت دخيل النشامي.»

ثم اتجه إلى عمود خشبي تعلق عليه لمبات كهربية واقتلعه من الأرض قائلاً:

« بأيمتي الغالي لأنسي هالحمّر حليب أمه .. حنا ايدك اللي ترد الالهانة يا بوصالح.»

و اتجه العمال إلى الأعمدة الأخرى واقتلعوها، وقطعوا سياجاً مكوناً من سلاسل غليظة وطوحوا بها في الهواء فأحدثت ونيماً مخيفاً، وتناولوا من على الأرض كل ما وقعت عليه أيديهم، وشخر بومساعد كأنه ذئب متوفز وهو يكسر غصناً .. ودخل فلاح إلى السينما ووقف يحمل عموده قائلاً:

« يلعن أبو الشريف فيكم .. اللي بايع عمره يذوقها من فلاح نسل الفهود ».

فانقض عليه الانجليز، وطوح فلاح عموده وانهال ضرباً على رؤوسهم وظهورهم فتناثر الدم على السور وعلى الشاشة، وتعالى صراخ النسوة، وتبع العمال فلاح بما يحملون، وصرخ بومساعد وهو يضرب بقوة:

« هاكم يا الاوغاد .. الرجل ما يمد ايده على الشيباب ».

وكسر العمال آلة العرض، وهدموا السور، و ضربوا بكل حقدهم و رفع أحد الانجليز كرسياً وخبط فهد على رأسه فوق على الأرض، وأتى فلاح ووقف فوقه وجعل فهد بين رجليه المفتوحتين يضرب كل من يقترب، يحرك عموده في الهواء فيبتعدون .. يقول و العرق والدم ممتزجان على جبهته:

« ياثار فهد بامية رجل .. طاح فهد وارتفع بين الرجال شأنه ».

وأطلق أحد الانجليز النار في الهواء من مسدسه ولكن العمال انقضوا عليه وجردوه من سلاحه وضربوه وساد هرج كبير، واختلطت الأصوات، طارت كراس في الهواء، وتحول المكان إلى جحيم في عيون الانجليز وتراءى للنسوة أن هؤلاء العمال ليسوا بشرا وإنما وحوش و همج لا يمتون للإنسان بأية صلة.

**

وفي الصباح جمعت عشرات الأحذية والنعال والقبعات البريطانية في شاحنة صغيرة.

**

زقزقت عصافير ونظرت بدرية إلى فهد بحب وفخر، كان شيء جميل حلو ينمو داخلها بينما

كانت تستمع إلى فهد الذي راح يتشاغل بإصلاح دراجته الهوائية سألته وهي تحاول أن
تساعده في اصلاح دراجته بأي شكل:

- ولكن ألم يعاقبوكم؟!

- بلى.

(٥)

أستدعي بونشمي في اليوم التالي إلى الأحمدى فحضر، وفي الحال طلب أن يأتي العمال إليه في مكاتب الشركة، توجس العمال من هذا اللقاء، وشمتم نعمان قائلاً:

ألم أقل لكم أننا سنفقد عملنا بهذا السلوك الأهوج .. ألم أقل ذلك؟ من المسؤول الآن عن هذه المصيبة؟ .. ماذا نقول للعم بونشمي وهو الذي أحضرنا ووفر لقمة عيشنا؟
حقد فهد على نعمان كثيراً .. ولكن فلاح الذي أعاد وضع رماد الموقد على جرح فهد وأحكم رباطه بجزء من ازاره، التفت إلى نعمان قائلاً:
أشتم رائحة خيانة يا نعمان.

فتجراً نعمان بالرد:

خيانة يا فلاح؟! .. أنت من خان هؤلاء العمال وأوصلهم إلى هذه النتيجة ..
سأقول .. نعم سأقول أنك أنت السبب وأنت حرصت العمال على التحرش بالانجليز .. وسأذكر أسماء من ساعدك .. أنا لن أرفس النعمة برجلي.
قفز فلاح وأطبق على عنقه وأصقه بالحائط الطيني وقال من خلف أسنانه المطبقة:
أنا لا يهمني يا حقير .. ولكن أقسم بشرفي بأنني سأنتزع رقبتك إن وشيت بفهد.
احتقن وجه نعمان وبرز لسانه، و تحول لونه إلى أزرق، و حاول العمال جهدهم أن يخلصوه من قبضة فلاح دون جدوى .. وما أن نجحوا في ابعاد فلاح حتى سقط نعمان على الأرض يسعل بشدة.

**

قال بونشمي وهو يشير بعصاه:

« ما تستحون »؟! .. لم نتوقع عيبة كهذه من أهل الكويت .. تضربون ضيوفنا؟! .. »
الناس اللي جونا يساعدونا ويعلمونا .. والمسألة هالحين صارت بوجهي أنا» .. صمت لحظة و استطرده:

« انا سويت فيكم شي حتى تفشلوني مع الأجانب ؟ .. من الحق والشرهه عليّ أنا اللي وفرت لكم هالشغلة من دون الناس؟»
وتطلع في وجوههم التي كانت تنظر باتجاه الأرض، ثم قال مهددا بعصاه:
« أنا راح أوريكم».

ودخل إلى مكتب مستر هندرسون، وظل ساعات هناك والعمال ينتظرون بالخارج، كل ما يفعلونه هو طرد الذباب عن وجوههم، وزاد الوقت طويلا انتظارهم لما يمكن أن يفعله بهم بونشمي والإنجليز .. وبعد ساعات خرج المساعد الهندي وقرأ اسم نعمان، و طلب منه الدخول إلى المكتب .. تلفت العمال ولاحظوا ابتسامة سخرية على فم فلاح الذي قال كأنه يخاطب نفسه:

« ما يقص الراس إلا اللي ركبه .. والأرزاق بيد الله ».

وازداد العمال قلقاً وتوقعاً .. وبعد فترة خرج نعمان من المكتب .. يسير بثقة وهو ينفخ دخان سيجارته، وما هي إلا لحظات حتى خرج المساعد الهندي مرة أخرى وقرأ أسماء فلاح وبومساعد وبوعلي، وطلب منهم الدخول إلى المكتب، وبعد ساعة من الترقب خرج بونشمي يتبعه مستر هندرسون وقال:

« اذهبوا إلى عملكم .. كلكم مخصوم من أجرتم عشرة أيام هيا ولا نريد مشاكل بعد الآن وإلا اتخذنا اجراءات صارمة ضدكم.

اطمأن بعض العمال فقاموا بسرعة قبل أن يغير بونشمي رأيه ويفصلهم .. ولم يجرؤ فهد أن يسأل عن فلاح والباقيين ولكنه ظل واقفاً .. فصرخ بونشمي ناهراً:
« هيا قبل أن نفصلك من عملك».

**

قال فهد:

« وحتى هذا اليوم لم أسمع شيئاً عن فلاح وبومساعد وبوعلي وهما أنا أحاول إصلاح دراجتي حتى أذهب إلى بيت فلاح للسؤال عنه».

بان الأسي على وجهه، فتجرات بدرية بوضع كفها على خده، انتفض ودق قلبه بقوة، ودق قلبها بقوة، وأحس فهد بشجن يعتصره، وأحست بدرية بحب واكبار لفهد فسألته:

تحب فلاح؟

فhez رأسه بالايجاب فرددت:

و أنا أيضاً.

تمايل النوير مع نسائم الربيع التي حملت ضحكات أطفال بعيدين يلعبون ويغنون:

« خروف مسلسل ..هدّوه .. تراه ياكم .. هدّوه ..»

ثم يغيرون اللعبة والأغنية إلى:

« ون .. تو .. جننتوه .. في العرباته ركبتوه».

وهم متشابكوا الأيدي على شكل دائرة.

قفز جنذب أخضر بين العشب بمرح ورشاقة فقالت بدرية:

سأذهب أنا إلى بيت بونشمي .. و سأنقل لك كل شيء.

(٦)

طرقت الباب الخشبي الكبير المزين بالمسامير ذات الرؤوس الكبيرة، وفتح لها أحد الصبيان فسألت:

« خالتي أم نشمي موجودة؟ »

بيت بونشمي يثير الرهبة لديها، فهو كبير، وبه غرف كثيرة تحيط بفناء واسع .. أما « الليوان » فيبدأ من عند الباب الرئيسي للبيت ويستدير معه .. وفي منتصف الفناء، هناك بركة عميقة مغطاة، تملأ بالماء للاستعمال اليومي، هذا غير فناء البهائم، وهو عبارة عن زريبة يربي فيها البقر والأغنام والدواجن، وتشرف أم نشمي على البهائم بنفسها. وأم نشمي هي الزوجة الأولى لبونشمي وصاحبة البيت الحقيقية أما الزوجتان الأخريان فقد اعتاد بونشمي ابدالهما بين الحين والآخر، ولكنه لا يطلق أم نشمي أبداً، فوالده زوجه إياها لاعتبارات عائلية فهي ابنة عائلة كبيرة ومعروفة، ومصاهرتها كانت تحقق مصالح اقتصادية وعرقية للأسرتين وبالنسبة إلى بونشمي تعتبر أم نشمي الواجبة، أما الزوجتان الأخريان فبالإمكان التصرف بهما في حدود الشريعة الإسلامية ولكنه لم يتزوج برابعة قط، وربما تزوج برابعة خارج الكويت كما يشاع بين النساء.

« هلا بنتي بدرية. »

احتضنتها فشمت بدرية رائحة البخور والعود، أردفت أم نشمي:

هل أكلت؟

نعم.

أجابت بدرية، فتحركت أم نشمي قائلة:

تعالى معي اذن إلى « حوش البقر ».

تبعته بدرية، سارت أم نشمي بأرداف ثقيلة واضعة جزءاً من ثوبها الشفاف والمزين بالترتر والذي يلبس عادة فوق الفستان .. وضعته على رأسها ذي الشعر المفروق والمدهون بالزيوت المعطرة ..

أم نشمي تقضي وقتاً طويلاً بالاهتمام بنفسها فيومها يبدأ فجرًا عندما تصحو للصلاة، ثم تتوجه إلى حوش البقر والماعر بنفسها وبمساعدة الصبيان، فمنذ سنوات طويلة اعتادت أن

تدخل حوش البقر في غبشة الفجر وأحبت رائحة البقر، تمسح على رقابها وتشمشمها وتطلق عليها أسماء، وتتحدث معها بصوت خفيض وكأنها تخاف أن توظف البهائم الأخرى .. يقوم أحد الصبيان بالنزول إلى الحوض الإسمنتي المنقوع به لفترة طويلة نوى التمر، ويقف الآخر فوق، ويغرف الأول النوى بالسطل الحديدي ويناوله للآخر الذي يأخذه ويفرغه أمام الأبقار والأغنام بالمقياس وبكميات محددة، ويعتبر ذلك افطاراً لها، أما أم نشمي فتبدأ بحلب الأغنام بينما صبي ثالث أو غزالة - التي كانت والدتها عبدة مملوكة لدى أسرة بونشمي، وظلت تعيش بينهم - تمسك رجلي الماعز كي لا ترفس السطل، تضع أم نشمي السطل تحت الماعز ثم تضع المقعدة الخشبية وتجلس بثقلها عليها وتمسح على ثدي الماعز برفق ثم تبدأ بالحلب، وما أن تسمع صوت شخب الحليب في السطل حتى تعترىها حالة النشوة والرضى، وتظل تتحدث مع الماعز:

« شبعتي؟ .. شوي شوي لا تكبين الحليب».

أم نشمي تعشق رؤية زبد الحليب، أسعد لحظاتها تقضيها بين البهائم، كل شيء جميل هناك، وخاصة عندما تشفق أول خيوط الشمس فتزداد الحركة في « حوش الدبش » ويتقاتل الديوك ويرتفع صياح الصيغان وهي تجري خلف أمها التي تنبش الأرض بحثاً عن الحبوب والديدان، ويبدأ حوار البقر و ثغاء الخراف، ويؤذن ديك في غير مواعده ويتناطح التيوس بخشونة.

وأم نشمي تحلب البهائم مرتين في اليوم، عند الفجر وبعد أذان المغرب، أما حلب الظهر فتتركه « لغزالة» و الصبيان لأنها لا تستطيع تحمل حرارة الشمس وخاصة في الصيف، أما عندما تلد احدى الأبقار فإنها تقضي هناك وقتاً طويلاً، وقد تسهر إلى ساعة متأخرة قرب البقرة التي على وشك الولادة، ويكتسي وجهها بالحزن والجدية عندما تكون الولادة متعسرة، أو عندما يخرج المولود مختنقاً بحبل المشيمة، ولا يجروء أي من الصبيان الذين يحملون الفوانيس أو يقفون على أهبة الاستعداد للمساعدة على التعليق، بل يتنفسون الصعداء عندما تتم عملية الولادة بسلام.

عادة ما يحمل الصبيان سطول الحليب خلفها ويفرغون جزءاً لاستعمال اليوم، والذي يصب جزء منه في إناء يحكم اغلاقه ، ويعلق بحبل على ثلاث عصي بشكل مثلث مقلوب، ثم يرج لساعات حتى تتكون زبدة كبيرة، وبعضه تبعه أم نشمي لا لحاجتها إلى النقود، ولكنها

تستمتع ببيع شيء تعبت به ويخصها سواء الحليب أو البيض، فما أن يبدأ الصباح حتى يتوالى الطرق علي الباب حيث يظهر صبي أو فتاة صغيرة يحملون إناء، وقد يحملون خبزاً ساخناً ملفوف بفاطمة تحت آباطهم.

« تقول لكم أمي تبني بنص روبية حليب و خمس بيضات ».

ويقوم أحد الصبيان بأفراغ الحليب ووضع البيضات، بينما تحرص أم نشمي على استلام النقود بنفسها.

كل ذلك يشكل جزءاً هاماً من حياتها، إذ بدونها ستعيش في فراغ كبير، فهي لا تطبخ، ففي حياتها كلها لم تجلس أمام دخان السعف الذي يشتعل تحت القدور، ولم تغسل أواني أو تكنس، فهناك دائماً من يفعل ذلك، وهي المسؤولة رغم وجود زوجتين أخريين عن مؤونة المنزل وحساب كم من الرز أو اللحم يجب أن يشتري، وأي الخراف أو الدجاج يحب أن يذبح وأن يطبخ لإطعام أهل المنزل، وهي التي تحدد كم قرصاً من الخبز يجب أن يخبز لهذا اليوم، هذا إضافة إلى حلب البهائم الذي يلبي لها حاجة نفسية و جسدية فمن دونه لا تقوم بأي مجهود جسدي وهذا ما راكم الشحم على جسمها.

أما أكل بونشمي فأفطاره عن الزوجة التي كان نائماً عندها، وغداؤه في الديوانية مع عيسى أو أحد الصبيان و كذلك قيلولته في الديوانية، وعشاؤه عند الزوجة التي سيبيت عندها .. فقبلها بوقت يبعث أحد صبيانه إلى إحدى زوجاته قائلاً:

بونشمي سيتعشى عندك الليلة.

فتعرف الزوجة أن بونشمي سيبيت عندها بعد العشاء فتبدأ بتجهيز نفسها والاهتمام بمظهرها، أما أم نشمي فتهتم كثيراً بمظهرها في كل الأحوال، فبعد الانتهاء من حوش البقر تتجه إلي الحمام ذي الأرضية الاسمنتية حيث تكون غزالة قد جلبت لها الماء من البركة و جهزت الحمام، ثم تساعدها على خلع ملابسها وفرك رجلها بصخرة خشنة، ودعك ظهرها وصب الماء عليها وبعد الحمام تقوم غزالة بمساعدتها على لبس ملابس نظيفة وعلى تمشيط شعرها ودهنه وفرقه من منتصف الرأس وعقسه بينما تضع أم نشمي « الديرم » بين شفيتها لكي يصبغها بلون قريب من البرتقالي الغامق والأحمر، ثم تشعل غزالة البخور وتضعه بين رجلي أم نشمي بينما تقول الأخيرة بتعطير نفسها بدهن العود، ثم تضع قليلاً من « الرازجي » على شعرها، ثم تجمع الشعر المتساقط و تلفه على إصبعها حتى يصبح خصلة واحدة لتحشره

فيما بعد في أحد شقوق حوائط المنزل المليئة بخصل شعرها وأظافرهما المقصوفة.
أم نشمي بنت أصل وعز بحق، فلسنوات أتت زوجات جديدات وذهبت زوجات بينما ظلت هي
سيدة البيت بلباسها وشكلها وأوامرها، لا يهمها أن تزوج بونشمي بزوجة جديدة، أو طلق
أخرى طالما ظلت مكانتها كما هي في هذا البيت الكبير .. تسير في البيت فترن أساور الذهب
التي تغطي ساعديها .. أم نشمي تبعث في البيت هيبه وانضباطا.

**

كان الوقت مغربا .. تبعث بدرية أم نشمي إلى حوش البقر بينما كانت هذه تتحدث:

« من يوم ما ولدت سمحة وهي موراضية تدر حليب . خايقة نخلصه عن عجلها».

تمايلت تحت ثقل شحمها ثم سألت:

« شلون فهد ؟»

ودون أن تنتظر الجواب أكملت:

« ما شفت أمه من زمان .. ما أدري شلون صحتها».

وفي حوش البقر بال ثور ذو سنامة، فأصدر بوله شخيخاً عالياً، مسحت أم نشمي على رقبة
البقرة « سمحة» وقالت لها:

« صرت عجوز وشكاكة يا سمحة .. دري لنا شوية ولعجلك شوية .. مراح ناخذ حليبك

كله».

طبطبت على بطنها وطلبت من بدرية احضار العجل كي يشم ضرع أمه فتدر، ولكن لا فائدة
من هذه المحاولة، فطلبت منها أن تمسك رأس العجل وتتركه يمتص حلماة واحدة بينما تحلب
هي الثلاث حلماة الأخرى، فنجحت هذه المحاولة، وشخب الحليب صاخباً في السطل الفارغ
ثم أصبح الصوت مكتوما عندما بدأ بالامتلاء، ودفع العجل بفمه ضرع أمه بقوه وهو يرضع
فتحركت سمحة قليلاً ونشّت بذيلها حول خصريها كي تطرد الذباب فقالت أم نشمي:

« ها .. ها .. ركدي الله ياخذك .. شكرت عنيدة هالعجوز مصيبة صابتها».

أخذت بدرية تقبل العجل وتمسح عليه قائلة:

« جوعان يا بعد عمري ».

ونعست عينا البقرة وهي تمضغ الشعير المطبوخ راضية بهذه التسوية .. تحلب علي شرط
أن يأخذ عجلها نصيبه، فقالت بدرية:

« أم .. واعليّه .. ما تنام وضناها جوعان ».

فرغت أم نشمي واطلقت بدرية العجل في زريبة معزولة عن أمه، التفت أم نشمي إلى بدرية:
« غيري هاالأحمر اللي عليك واشتري نفنوف جديد ».

عدلت بدرية من وضع فستانها وقالت بخجل:

« فهد يحب الأحمر ».

صبت بدرية الماء من الأبريق على يدي أم نشمي وسألتها:

« وين عمي بونشمي »؟

ردت أم نشمي:

في الديوانية.

ثم استطرقت:

« محتاجة فلوس »؟

« لا .. أبيه بموضوع فلاح .. يمكن بونشمي طرده من الشغل ».

أم نشمي لا تفهم ولا تعنيها هذه الأمور ولذا قالت:

« روعي له في الديوانية ».

**

دخلت بدرية إلى الديوانية، وهي غرفة طويلة صفت المساند حولها، وكان بونشمي جالساً
في أقصاها على ثلاث مساند واضعاً رجليه في طشت، بينما كان الصبي الجديد يغسل رجليه:

« الله بالخير عمي بونشمي ».

« هلا .. من هذي »؟

« بدرية طال عمرك ».

ضيق فتحتي عينيه وقال:

« بدرية ؟ .. حياك الله ».

اقتربت بدرية، وعلق الصبي عينيه عليها وهو يدلك قدمي بونشمي، اقتربت أكثر ولاحظ بونشمي استدارات جسمها فقال:

« ماشاء الله .. كبرت يا بدرية ».

فقالت:

« عمي أبي أسأل عن فلاح شصار له ».

وهو مازال يتفحصها:

« وانت شعليك من فلاح و شصار له »؟

« بس طال عمرك هذا مسكين وماعنده شغلة، وعنده عيال ».

ولكن بونشمي لم يهتم للموضوع فكل اهتمامه كان منصباً على خصرها ورجليها ووجهها.

« شتبين »؟

ردت وهي تفرك أصابع يديها:

« ترجعه للشغل أو تعطيه شغله ثانية ».

سعل كثيراً ثم قال:

« لم تعطي عمك بونشمي قبلة ».

اقتربت منه فشم رائحة الأثني، وأدركت بدرية أنها لم تعد طفلة، فابتعدت خطوة .. ثم خطوتين .. ثم هربت بينما بونشمي ينادي:

« تعالي .. بدرية .. بدرية ».

ولكنها اختفت، فرفس صبيه الجديد قائلاً:

« آي .. عورت رجلي الله يلغك ».

(٧)

بادرت زوجة فلاح فهد بقولها:

لا تسأله عما حدث له .. فهو من يومها و« جاثوم» يسيطر عليه كل ليلة.

**

منذ اليوم الذي أحضروا فيه زوجها فلاح وهو طريح الفراش، أتى مستنداً على الحائط وقد أخذ الهزال من وجنتيه الكثير، وازدادت الدوائر تحت عينيه عمقاً .. دخل إلى البيت حافي القدمين، مشعث الشعر، وعندما رأته زوجته ضربت بكفها على صدرها وصرخت:

« وي .. غيرة .. فلاح شفيك ..؟»

ولكن صوته خرج مرتجفاً:

« جب » .. لا أريد نواحاً والا استيقظ الأولاد .. وديني لفراشي ..

أخذته بصعوبة لثقل جسمه عليها، وتهاوى على فراشه، وطلب أن تغطيه، ومنذ تلك الليلة غزته كوابيس ونز من جسمه عرق غزير .. ومر يومان وليلتان وهو على هذه الحالة، وزوجته تفرك كفيها حسرة وحيرة، بخرته، ووضعت حجاباً تحت مخدته، استدعت « أم شمالان» التي كانت تقوم بدور القابلة، و«الحوافة»، كما أنها تصنع أدعية وتقوم بطقوس الزار و طرد الجن، وقد وثق بها أهل الحي لخدماتها العملية ولأنها زوجة أمام مسجد « حولي» .. ولكن فلاح كان يثور كلما قامت زوجته بشيء من هذا القبيل، حتى أنه طرد أم شمالان التي أكدت بأن فلاح قد ركب جن، ولكنها طمأنت زوجته بأنه جني ذكر وليست جنية .. كان فلاح يحاول أن يفهم زوجته صارخاً:

« اللي فيني مو جن .. فيني آدمي أقوى من الجن» ..

"أوديك المستشفى الأمريكاني؟"

« بعد طبيب أمريكي؟ .. ماطاح الا انبطح» ..

ضربت زوجته على فخذيها من قلة الحلية ..

« يا ربي يا دليلي شسوي » ..!

تحسن حاله بعد أيام واستطاع أن يشرب شوربة دون أن يستفرغها، وزاره « بومساعد » و« بوعلي » وقالوا لزوجته:

« فلاح مافيه إلا القهر » ..

أخبرها بما حدث ..

عندما استدعى المساعد الهندي فلاح وبومساعد وبوعلي، وبخهم مستر هندرسون بينما بونشمي يستمع إلى ترجمة عيسى الركيكة، وأخبر بونشمي: أن هؤلاء هم قادة العصيان، وأن تحرياتهم كشفت المحرض الأول هو فلاح وشرح كثيراً عن أن استخراج البترول في أي بقعة على الأرض يستلزم مسؤولين أشداء يستطيعون احكام القبضة على أمثال هؤلاء المشاغبيين، وأخبره كذلك إن خبرتهم تقول بأنهم سوف يلاقون متاعب كثيرة في المستقبل تضر بالمصالح الإقتصادية المشتركة، وإن أكثر الصعوبات والعراقيل التي تواجهها شركات النفط العالمية هي من أمثال هؤلاء وشغبهم، وضرب أمثلة ببلدان كثيرة قريبة وبعيدة، وأكد أن خبراتهم التاريخية في التعامل مع هؤلاء غنية .. يجب الضرب بيد من حديد والقضاء على قادة الشغب.

وكان بونشمي يضع يده خلف أذنه مستفسراً:

« قادة الشغب »؟

فيكرر عيسى مصححاً:

« الشغب يا عمي الشغب ».

ويكمل هندرسون، هذا لا يعني عدم تقديم تنازلات إلى باقي العمال، إذا طالما أخذوا عبرة من غيرهم علينا إثبات حسن نيتنا .. مثل أولادنا بالضبط .. نشد معهم ونرخي، كما يجب مكافأة المخلص منهم، وهم قليل كما تعلم .. ثم قرروا:

١ - مكافأة المخلصين وترقيتهم.

٢ - احتساب يوم الجمعة عطلة أسبوعية.

٣ - اعطاء العمال إجازة سنوية مدة ثلاثة عشر يوماً، ولكن قبل ذلك يجب بث الهيبة في نفوسهم وخصم عشرة أيام من راتب كل منهم.

٤ - معاقبة قادة الشغب كل حسب دوره.

بعد ذلك ربطوا أرجل فلاح وبومساعد بالفلقة وأدموا أقدامهم بالضرب، وتولى هندرسون ضرب فلاح بنفسه.. بعد ذلك طردوا بومساعد وبوعلي من عملهما ووضعوا فلاح في صندوق سيارة بونشمي السوداء وانطلقوا به باتجاه المدينة، و تعمدوا أن يمشوا على مطبات كثيرة .. وفي المدينة ضرب على قدميه وظهره بعد أن عرّوه من ثيابه .. ثم حبس في مرحاض ضيق تفوح منه رائحة كريهة و يكثر فيه الذباب وظل هناك يومين كاملين، أخرج بعدها وأعطيت له ملابسه وقادوه إلى منزله بعد منتصف الليل.

**

حاول فلاح أن ينهض عندما رأى فهد، وظهرت البشاشة على وجهه:

« هلا فهد .. يا لله حيّه.»

وقبل فهد رأس فلاح المليء بحبات العرق، و اطمأن فلاح إلى أن فهد مازال يعمل في الشركة وأوصاه بالحرص فقال:

مع الذئب عليك أن تكون ثعلباً أحياناً، و أسداً عندما تقوى أنيابك و مخالبك .. ثم جرع قليلا من الماء و أكمل:

« ترى اللي يملك فوق الأرض يملك تحتها بعد، وهندرسون مو بس جاي يطلع الجاز ويساعدنا، تراه شراكة في هالجاز ومستعد يحمي نصيبة حتى لو على موتنا .. و إحنا تدري شنهو؟ إحنا عبيد .. إحنا علينا نطلع الجاز ونقول له: تفضل عمي .. وإذا خلص منا زاعنا .. احنا مثل الحمير يكدوننا وإذا تعبنا يطقونا، وإذا سويننا اللي علينا يعطونا شوية جت ويقولون عفيه عليكم .. لكن الفرق يا فهد إن إحنا بشر وعندنا كرامة ومخ وإذا طقتنا واحد مثل هالابن الكلب ومحد فازع لنا نحس بالمذلة والمهانة وإذا وقفت بروحك بوجوههم اتودر، لازم تكون إنت وربعك على قلب واحد .. ودير بالك .. **حيذور من نعمان** وأمثاله اليوم و دوم .. هذا مثل القبي ما يعيش إلا في الخرا حاشاك، لكنه ينفع في صيد الطيور .. كان فلاح يتكلم بإنفعال والعرق يتساقط من جبهته.

« شغل مخك ولا تطق راسك بالطوفة، ترى بني آدم لحم و دم .. ضعيف.»

وقبل أن يخرج فهد قالت له زوجة فلاح:

- لا تلق بالآ على ما قاله .. فمن يومها وهو يهذي .. عسا الله يشافيه ويشغل بعد ما عاد عندي فلوس .. على الله وعلى هالأجواد ..
- فأخرج فهد بضعة روبيات ووضعها في يدها:
« خالتي هذه سلف، وراس فلاح لا تردينها» ..
- وقبل أن تقبل أو ترفض جاءهما صوت فلاح من داخل الغرفة:
« دير بالك على بدرية يا فهد» ..

(٨)

كان الصيف لاهبا في تموز، كانت الأرض جافة ساخنة تلسع أقدامنا الصغيرة العارية، وما أن يلق أحد بالماء المستعمل خارج بيته حتى تشر به الرمال في نهم، وتتهافت « الزراير » لتنقر الأرض الرطبة بحثاً عن قطرة ماء تروى عطشها، ثم تطير طيراناً قصيراً منهكاً من سلك كهربائي إلي آخر بحثاً عن بقعة ظل.

توافدنا إلى البحر لنرطب أجسادنا، واسمرت بشراتنا وتقشرت جلودنا بسبب الماء المالح والشمس الحارقة ..
وامتلاً الفراغ بين السماء والأرض بسراب يتراقص كالدخان .. وماتت عنزة وبضع دجاجات لأم نشمي من شدة الحرارة.

كان سأمًا ومللاً، ولم يكن هناك ما يثير اهتمام الناس لولا خبر زواج بونشمي من بدرية الذي انتشر في الأحياء والأسواق بسرعة الاشاعة، والذي مهد له بعناية، إذ فوجئ المصلون في مسجد حولي في خطبة الجمعة بالإمام وهو يتحدث حول بدرية اللقيطة التي كبرت وتكور جسمها وأصبحت هدفاً جديداً للشيطان، وهي مازالت تلعب مع الصبيان وتدخل بيوت الناس وقد يترتب على ذلك فساد كثير، وقد اختار بونشمي الساهر أبداً على أعراض الناس أن يجنب الحي الفساد والتفكك والرذيلة بأن يتزوج بدرية ويقضي على بذرة الشيطان.

وكيف كان بونشمي قلقاً من إغصاب المولى وهو يسأل رجل الدين حول نيته في الزواج من هذه الفتاة، ولكن رجل الدين أخبره بعدما عانقه أن الأمة لن تصلح إلا بوجود الصالحين من أمثاله الذين ينشغلون بأحوال المسلمين أكثر من انشغالهم بأحوالهم الخاصة، ولذا يجب الاتكال على الله في فعل خير كهذا.

وختم أمام المسجد خطبته الطويلة وهو يمسح الزبد من زاويتي فمه بالدعاء التالي:
اللهم احفظ لنا أعراضنا..

.. آمين ..

اللهم نجنا من إغواء الشيطان ..

.. آمين ..

اللهم احفظ لنا الرجال الصالحين ..

.. آمين ..

وخرج الرجال بعد الصلاة، بعضهم اقتنع بحديث الإمام وبعضهم قبل على مضض وبعضهم حبس استنكاره في صدره وكان منهم بومساعد وبوعلي اللذان يعرفان برغبة فهد في الزواج من بدرية.

كما لاحظت نساء الحي تردد رومية على البيوت، ونقلت لأصحابها سبب عزم بونشمي على الزواج من بدرية، حيث أخبرتهم وهي ترشف الشاي وتقشر اللب وتأكله بنهم، كيف أن بونشمي لاحظ على بدرية سلوكيات مريبة مع صبيان الحي، حتى أنها حاولت أن تغويه مرة وهو الرجل الخير، ولما استنكرت بعض النساء على رومية مثل هذه الأخبار، زادت رومية التي تسكن حي « الرميطة » حي الساقطات، بأنها شاهدت بدرية في الحي أكثر من مرة وأخبرت بونشمي بضرورة الانتباه للبنات، وإلا ستجرف إلى الرذيلة وليس لدى البنات أم أو أب غير بونشمي أب الجميع، ثم عقت رومية:

« الوحدة فينا كبرت وقامت تخاف الله، والطريق هذا مافيه إلا الخيبة والكسافة، مأجور

بونشمي اللي ما بغى البنات تضيع وهي بعد بنت **أربعتش**»..

بعض النسوة استنكرن زواج بونشمي من بدرية واستنكرن ما قيل حول سلوك بدرية وبعضهن زدن على ما قيل إلى غيرهن، و بعضهن رددن ما يشبهه:

« الله خير حافظ ، البنات مالها إلا نصيبها اللي انكتب لها»..

أما أم نشمي فلم يكن بونشمي أول من أعلمها بالأمر، ولكن عندما أخبرها بنيتها دون مقدمات أو تفصيلات أجابت:

« الله يكتب اللي فيه الخير و الصالح »..

(٩)

كانت الاستعدادات للعرس بالنسبة لنا أمراً مذهلاً، فبونشمي أول من استخدم الأضواء الملونة الممتدة بشبكة أسلاك من سطح المنزل .. ورشت الساحة الكبيرة أمام المنزل بالماء، كما غسل فناء المنزل جيداً، ونحرت ذبائح كثيرة، وجلبت ثلاثيات كبيرة حمراء كتب عليها « كوكاكولا» و« سينالكو» وملئت بقوالب الثلج والمرطبات، ووقف قربها صبيان يفتحون الزجاجات ويوزعونها بسخاء على الجميع، ولأول مرة لم نستطع إكمال شرب زجاجة كوكاكولا لامتلاء بطوننا بالمرطبات، فأصبحنا نأخذ زجاجات المرطبات ونضع إبهامنا على الفتحة ثم نرجها بعنف ونفتح جزءاً صغيراً من الفتحة فينطلق المشروب الغازي ونرشه على بعضنا.

وتوافد الناس من كل صوب بنفسيات مختلفة، فالبعض يقول: « لا علينا» و البعض يقول : « مهما يكن الأمر فالمشاركة واجب»، والبعض جاء ليستمتع بالثرید وبالغناء.

تصاعد الدخان من القدور الكبيرة واحمرت وجوه الطباخين لقربهم من النار، و نزل منهم عرق كثير.

وفي الديوانية كان بونشمي في أبهى زينة بينما كان إمام مسجد حولي يعقد قرانه، وقد جلس رجال مهمون بينهم مستر هندرسون الذي جاء بدعوة من بونشمي ليرى مظاهر العرس الكويتي، ودارت أقذاح الشاي ثم قام أحد الصبيان الموهوبين بصب القهوة وتوزيعها للرجال بدءاً من اليمين، ثم رش ماء الورد على رؤوس الرجال وفي راحات أيديهم التي مسحوا بها وجوههم و ذقونهم، وتبعه صبي آخر بمبخر يتصاعد منه دخان زكي الرائحة تشبعت به غتر ودشاديش الرجال، ولاحظ الجميع أن شوارب بونشمي التي قصت بترتيب قد تحولت من الأبيض إلى الأسود، وأخرج عيسى ختماً وخبطه في المحبرة ووضعها على وثيقة الزواج، ثم بارك الرجال لبونشمي وقبلوا رأسه وأنفه، وخرجت من هنا وهناك كلمات مثل:

« منك المال و منها العيال».

ثم امتدت بسرعة غريبة خارج المنزل سفرة طويلة ووضعت صواني كبيرة تحتوي كل منها رزاً وخروفاً بأكمله يتدلى لسانه من جمجمته، وجلس الرجال وامتدت الأيدي إلى صحن الفلفل ومسحنا أنوفنا بسواعدنا، وقطع الرجال لسان إحدى الذبائح وقذفوه أمام من يعتقدون أنه شاعر، وهذا يعني أنهم يطلبون منه قصيدة لهذه الليلة، فكان نصيب « جويعد الشاعر» عشرة لسانات، ونصيب « صقر ثامر » تسعة لسانات، والباقي أكلها من يعتقد أنه شاعر ومنهم شباب يافعون، وبعد أن اتخمننا من الرز واللحم امتدت أيدينا إلى صواني البطيخ والشمام الذي جلبته شاحنات بونشمي من « الصبيحية» و« الفنطاس».

كنا في السابق لا نتورع عن أكل قشر الشمام ولكن في هذه المرة ولكثرته كنا نقضم قسمة واحدة من القطعة ونرميها لناخذ غيرها.

ثم اتجه الرجال إلى براميل لغسل أيديهم وفركها بالرمال **لنفاد** الصابون، ومع ذلك ظلت رائحة الدسم عالقة بهم، وهنا جاء دور الشاي المعطر باللقاح الزعفران والهيل، وتجشأ الرجال بصوت عال وعبثوا بأسنانهم بأعواد الكباريت وأعواد الحصير في الوقت الذي انطلقنا فيه لنسخن الدفوف لأهل الفنطاس القرويين الذين جاءوا مشاركين، ثم جربنا النقر على الدفوف فوجدنا جلودها مشدودة على الآخر .. جاهزة لليلة سامرة طويلة .. واصطف الرجال متقابلين وهم جلوس وانطلقت من فم « فرج » نعسانه ممطوطة: « حمام ياللي في البساتين، تلعي طرب والههم ما جاك » فجاوبته أصوات رجولية قوية ومشاركة بنفس الجملة، ثم ارتفع صوت الدفوف « بالسامري»، واهتزت قامات الرجال وتمايلت أجسادهم طرباً، و أغمض « سلطان» عينيه وهو يضرب الطبل البحري بنشوة، وانطلقت النسوة على صوت السامري إلى سطح المنزل لمشاهدة الرجال وهم يغنون، وأدرك الرجال أنهم مراقبون من قبل الإناث فاهتزت أكتافهم بإغواء رجولي .. وحاولنا أن نرقص على أنغام السامري مقلدين الرجال، وكل منا يعتقد أن هناك فتاة تراقبه، وبعد جولة السامري أوجعت أصابع الرجال وأتعبت حناجرهم، واستحلبت عرقهم، وأرخت جلود الدفوف وخرقت بعضها. جاء دور « الفريسني» فاصطف الرجال متقابلين وقوفاً، وتدافعت النسوة لرؤية جويعد الشاعر الذي كان من بين الراقصين والذي كان معروفاً بشربه للخمر سراً، واختلفن وتصايحن على بعضهم وسحبن

عباءات بعضهن .

رمح الرجال ودقوا الأرض بأرجلهم فتطاير الغبار، و تعلقت عيون النسوة بوجه جويعد الوسيم الأحمر، وبذقنه المائلة للاشقرار، وبعقاله المائل على رأسه بطريقة فنية، وأدرك أنه مراقب وتجراً أكثر من غيره على النظر إلي أعلى ناحية السطح، فكشفت بعض النسوة وجوههن برفع البراقع إلى أعلى، فصرخ جويعد صرخة تشبه صرخات الحرب وتبعها بقوله: « في حولي شفت أنا سيد البنات .. الله اكبر يوم قطت العباة » واختلطت هذه الجملة بغناء الرجال بشكل متناغم، وازداد قفز الرجال، فاضطروا لمسك عقالاتهم بأيديهم، وارتفعت ركب الرجال في كل خطوة للأمام أو للخلف، وتمايل رأس جويعد يمناً ويسرة مع كل رفعة رجل كالفرس الأصيل، فطارت قلوب النساء وانطلقت الزغاريد وتخليين عن تحفظهن وخرجت أصواتهن، و انزعج بعض الأزواج والأخوة و غاروا من جويعد، ونظروا ناحية السطح لكنهم لم يستطيعوا أن يميزوا أحد يعرفونه، و استمر الرجال بالفريسي حتى تعبوا و تقطعت أربطة نعالاتهم النجدية.

وبعد فترة راحة شرب خلالها الرجال الشاي والقهوة وسخت فيها الدفوف قال « صقر ثامر لجويعد مشاكساً:

أحسنت اليوم يا لصانع عندنا لك خوش مدخول
لا تخجل من أصلك لا تمنع شنت من الصناع قول

فرد جويعد قائلاً:

أنا صانع وبحياتي قانع من ايدي تعيش الفحول
ماني ذليل لغيري خانع ولاني بالأصول مخبول

فاستحسن الرجال رد جويعد، وحث البعض صقر على الرد فقال:

الأصيل ما يعمل بالمصانع بس يا امر وينهي وينول
والصانع يطيع ما يمانع يكد ويكدح مثله مثل البغول

فاستلقى البعض طرباً وقالوا:

« صح لسانك يا ابن ثامر »

فأجاب جويعد غير مبالي:

التيس تيس في المقارع لو عيشوه بين الخيول
إحنا ندر وننشف المراضع الرجل يعمل والمرة تقول

فارتفعت أصوات الرجال بالاستحسان، واستمرت المساجلة الشعرية حتى ساعات الصباح الأولى.

**

وفي داخل المنزل رقصت النساء، وغنت الفرقة النسائية واختلطت رائحة عرقهن بروائح البخور والعطور، وسالت خطوط الكحل من رموشهن بفعل الحرارة، وتغامزن على بدريّة وتغامزن على بعضهن وتذكرن ليالي زفافهن، ودخنت إحدى المغنيات سيجارة « غازي » دون تحرج، فنظرت إليها الزوجات شزراً، وقالت الفتيات أنها نصف رجل وتحدثن عن علاقة مشبوهة بينها وبين فتاة في الفرقة النسائية.

بدريّة بدت بزينتها وجمالها كالوردة المقطوفة، تثير مشاعر مختلفة لدى النساء، فبعضهن

حسدنها على النعيم الذي ستعيش فيه، وبعضهن أشفقن عليها، وبعضهن لاحظن الذهب الذي يغطي صدرها وساعديها ورأسها لا يناسبها البتة، وقالت النسوة إن أم نشمي أعارتها ذهبها، وعندما اقتربن منها حاول لمس حزام الذهب الذي يشد على خصرها الجميل.

أما أم نشمي فقد كان ضيقها شديداً لتصرف بعض النسوة الهمجي عندما قمن بإخفاء أفخاذ الدجاج والحلويات في أكياس جلبنها خصيصاً، ولم تتورع بعضهن عن استعمال جيوبهن في إخفاء أقذاح الشاي والقهوة المنقوشة، وبعض الأطباق الصغيرة التي رسم عليها علمان متقاطعان أحمران متصالبان كتب عليهما كلمة « كويت ».

أما الزوجتان الأخريان لبونشمي فقد كانتا جالستين قرب بعضهما تتحدثان أو تبتسمان على مضض، وبين وقت وآخر تأتيهما ملاحظة قاسية من أم نشمي لكسلهما.

وعندما حان زفاف بدرية، اتجهت إلى الغرفة المخصصة لها وهي تذرف دموعاً، وتبعثها المغنيات وهن يضربن على الدفوف بقوة ويغنين « عليك سعيد ومبارك » واقتربت الدفوف من أذن بدرية مما أصابها بصداع قوي، واقتربت بعض النساء وانتهنز فرصة للمس الذهب الذي ترتديه وستان العرس، وانفتق الفستان من الخاصرة من كثر الشد وقامت إحدى النساء الحاقداً بقرص بدرية في فخذها وهي تبتسم، ورغم أن بدرية صرخت وبكت إلا أن أحد لم يسمعها، وظنوا أنها ككل عروس تبكي في ليلة زواجها، ولم ترتج بدرية حتى أغلق خلفها باب الغرفة وتهالكت على السرير الوثير.

ثم جاء دور زفاف بونشمي، أوصله الرجال بزفة كبيرة إلى داخل البيت، ثم أوصلته النساء بزفة أخرى إلى الغرفة، وعلى عكس ما حدث لبدرية لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، وما أن دخل الغرفة وأغلق الباب حتى اشتعلت الأغاني النسائية بصخب عال، وغنى الرجال خارج المنزل وارتفع صوت الطبول البحرية والدفوف، وانتهنز جويعد فرصة الصخب وذهب لينعش نفسه ببعض جرعات من العرق.

وبعد فترة ساعة انكسرت خلالها زجاجات المرطبات واحترقت بعض لمبات من الزينة .. تعاركنا على أمور تافهة، وطفنا في أرجاء المنزل الكبير منتهزين فرصة انشغال الجميع ..

خلال ذلك أطل بونشمي من باب الغرفة حاسر الرأس، وقد ظهر الشر في عينية وصرخ في المغنيات اللواتي كن يضربن الدفوف ويغنين قرب باب الغرفة:
« بس يلا ذلفوا .. إن سمعت صوت وحده فيكم كسرت رجلها»..

**

وفي صباح اليوم التالي عندما اقتربنا من الباب العالي لمنزل بونشمي، وشاهدنا آثار عرس البارحة، والتي أصبحت كئيبة، اكتشفنا فجأة أن بدرية قد اختفت وراء هذا الباب الكبير الموصل، ولن نراها بعد الآن..

وكان هذا أول اختفاء لبدرية..

اختفت بدرية، واختفت معها أجواء البراءة والمرح والدفء، وأصبحنا نحس بشجن يدفعنا لأن نتشاجر ونبكي لأدنى سبب، تخاصمنا وعندما ضرب واحد منا الآخر بحجر سال دم تخين من رأسه على جبهته ووجهه، وقف هذا الأخير مذهولاً ووقفنا مذهولين، ثم سالت دموعه، ليس ألماً ولكن إحساساً بالغبن والاشفاق على نفسه .. لماذا هكذا؟! هل كان لابد أن يحدث في يوم من الأيام ما حدث؟! أم أن غياب بدرية عنا ترك في داخلنا قهراً وربكة هدمت الشعور بالانطلاق و الأمان، تعاركنا عشرات المرات في السابق وتعفرت وجوهنا وملابسنا بالغبار، ولكن لم يُسل أحدنا دم الآخر، ولم نتخاصم بجدية .. لو كانت بدرية معنا .. هل يحدث ما يحدث؟! هل تغير الزمان؟! هل تغيرت الأشياء؟! أم أن كل شيء على حاله ونحن الذين تغيرنا؟

بدرية كانت بالنسبة لنا تجسيدا لكل شيء حلو، رائحة الأرض بعد المطر كانت بدرية، كانت سماءنا الزرقاء الصافية، كانت طائر « الرهيز » الذي كان يتبع موجة البحر وهي تنسحب ويهرب باتجاه الشاطئ عندما تلحقه مداعبة، كانت طائر « الجنة » بمنقاره الجميل عندما يفرد جناحيه الأبيضين محلقاً حول صواري السفن، كانت صوت المجداف وهو يشق سطح البحر، كانت نوير الربيع ونسائمه، كانت ليالي الصيف اللذيذة المقمرة، وليالي الشتاء الدافئة حول الموافد ..

كل فتياتنا فيهن شيء من بدرية .. الشعر الفاحم، البشرة الحنطية الناعمة، الثغر الأنثوي، الغنج و الدلال غالبا الثمن، الروح المحبة للحياة، والاستعداد للحب، والاستعداد لقتل المحبوب حبا، النظرات الولهي، الرموش والحواجب .. كل فتاة كويتية هي بدرية.

بدرية .. أينك يا بدرية؟ هل أنت سعيدة خلف تلك الأسوار العالية؟ هل أنت هانئة بين الذهب والحرائر والوسائد المخملية؟

رأينا قماشة معلقة بونشمي جالسة في مكانها اليومي المعتاد في ظل «حوطة بو عيسى» وقد انقلبت عباؤها السوداء إلى رمادية كالحة .. كانت تجلس يوميا ساعات القيلولة عندما يكون بونشمي نائماً معلقة عينيها على باب البيت عليها ترى ابنها الذي رفض بونشمي أن تراه بعد أن طلقها، رأينا هذا المنظر مئات المرات، ولكننا لم نبك كما بكينا هذه المرة، ربما لأننا تخيلنا مصير بدرية، وحدقنا في كتلة السواد القابعة على الأرض المتسخة وتمنينا أن لا تكون بدرية. ولما أفقنا حقدنا على بونشمي .. العجوز الذي سرق بدرية منا، وقررنا ألا نأخذ منه عيديه قط، وابتسمنا لهذا القرار وشعرنا بالارتياح.

(١١)

مثل الناقة التي أضاع الرعيان رضيعها ظل يصرخ وينادي بحنجرة مجهدة:
بد..ر..رية..

اصطدم صوته بحوائط المنازل الواطئة المتكئة على بعضها، ومزق سكون الليل المحمل
بالرطوبة والنتانة، فهربت قطط جائعة من قرب القمامة، ورفعت كلاب مجهدة رؤوسها ثم
أنزلتها مرة أخرى على قوائمها الأمامية دون أن تغمض عيونها.
بد..ر..رية..

واستيقظ الغافون على أسطح منازلهم، والذين ظلوا يتقلبون على فرشهم المبللة مثقلين بالهم
والرطوبة، وبكى الوليد بعدما أفلتت ثدي أمه، فطبطبت على ظهره وهي تدمدم بشئ يقال
لهدهدة الطفل:

« نام نومه هنية ، كالغزلان في البرية».

وأفاق فلاح وامتدت يده إلى « الغرشة» وشرب وتعمد دلق الماء على صدره ليشعر بالبرودة
وغمغم:

« الله يكون بعونك وعوننا يا فهد».

**

فهد الذي جن جنونه عندما سمع بخبر زواج بدرية من بونشمي .. أحس بأنه سُرِق و ظلّم
وجرد من أعلى شئ في حياته. وأحس لأول مرة بأنه في مواجهة مع شئ أو مع أحد وشعر
بسخط عظيم قبل أن يشعر بالحزن، وتجراً وحدث الرجال بنبرة غير هادئة:

كيف ترضون أن يتزوج هذا العجوز من بدرية وهي لا تحبه!؟

وخفض بعض الرجال رؤوسهم وبعضهم رد عليه:

« الزواج قسمة ونصيب يا ولدي».

وكثير منهم قالوا وهم يلعبون « الدّامة» أو « الدومنة»:

« حنا شكو؟.. يا معود لا تدوخ راسنا»

أما نعمان فقد خاطب الرجال قائلاً:

« شعليكم منه .. ياهل بزر ما عنده سالفة».

ولكن فهد الغاضب صرخ:

« بدرية من حقي، أحبها وتحبني»

فقال نعمان مهدداً:

« عيب يا فهد تتكلم عن حرمة الرجال هالشكل، ترى لو وصل حكي لبونشمي أنك تقول

بين الرجال أن حرمة تحبك وتحبها يذبحك، اليوم بدرية زوجة بونشمي بشرع الله ورسوله».

وهز الرجال رؤوسهم بالموافقة، فأردف نعمان من موقف قوة:

« الرجال ما قصر، ضفها، ولفاها بعدما كانت مشردة، وصاتها من الشيطان، واستخار

الله في كل خطوة».

تتنح البعض وهم يعبثون بشواربهم، بينما اختلس البعض نظرة إلى فهد دون أن يجرؤ على

النظر في عينيه، وأكمل نعمان قائلاً لفهد:

« عيب يا ولد، ولا تحط نفسك في مصيبة منت قدها، ومحد راح يلوم بونشمي إذا أذاك

،لأن المسألة صارت بشرفه وكرامته، تعوذ من ابليس وروح شوف نصيبك أبرك لك».

نظر فهد إلى الرجال الذين انخفضت رؤوسهم أكثر وهزهم التهديد أكثر مما هز فهد، وشعر

باحباط ومذلة وحزن كبير يعتصره ثم قال بصوت مخنوق بالعبرات:

« روعي معلقة فيها .. دخيل الله و دخيلكم .. روعي معلقة فيها».

ومن يومها وهو ينادي على بدرية ويجلس بالساعات يبكي، ولما استفسر بونشمي عما

يحدث قيل له:

« ياهل تخبل».

وبعد فترة سمعنا أن الشركة أعطت فهد بيتاً من بيوت العمال في الأحمدية ولم يعد الناس

يسمعون نداءه على بدرية.

انتشرت موجة من التوتر والمشاحنات بين أهل الحي وحدثت أمور وأحداث كثيرة، فلأول مرة نرى فيها امرأتين تتعاركان، وتسحب احدهما عباءة الأخرى أمام جمع من الأطفال وبعض الرجال ذوي الشخصية الضعيفة، وقد بدأت المعركة كلامية أول الأمر، كل واحدة في بيتها .. نصفها فقط خارج الباب، وعندما احتدم الكلام، وتبدلت الألقاب، دخلت كل منهما إلى الداخل ولبست عباءتها السوداء وخرجت وقد احتقنت بالغضب، وشدتا شعر بعضهما وعلا صراخهما واتسعت دائرة المتفرجين، ووقفنا لا نعرف لمن ننحاز، ولم نتوقفا عن التعارك حتى بكت طفلة احدهما ذات الثلاث سنوات وهي تفرك عينيها مشعثة الشعر عند باب البيت، وحتى انهكهما التعب وجلستا تبكيان وكأنهما نفسا عن قهر مكبوت ثم اتجهتا إلى بيتها دون غالب أو مغلوب.

وفي تلك الفترة أيضا قبض على حرامي غبي لأنه دخل بيت «صالحة المجنونة»، التي تبيع «اليقظ و الخريط» والبيض والتي تسكن معها بنت صغيرة لا أحد يعلم إن كانت ابنتها أم لا، لم يجد ما يسرقه فاتجه إلى المطبخ و ظل يبحث عن الطعام، ثم دخل قن الدجاج ولم يستطع الخروج منه، وضرب تلك الليلة ضرباً مبرحاً من جميع رجال الحي، حتى كاد يفقد حياته ، وكان الرجال يضربونه بالنعال وبقبضات أيديهم وكأنه عدوهم المنتظر الذي سيشفون فيه غليلهم.

وبعد أن قادوه إلى مركز الشرطة مربوطا بحبل طويل من أكتافه وحتى خصره، وهو يترنح وقد سال الدم من أنفه و أسنانه. ظلوا سهرانين يتحدثون عن الحرامي وكيف عاجله فلان بضربة على وجهه، كيف ركله فلان، وسألت النساء البنت الصغيرة لتاسع مرة كيف شاهدته، وكررت الفتاة القصة لكل من سألها قائلة أنها سمعت صوت الدجال وهي تصيح بجزع، وظنت أن فأرة كبيرة دخلت عليها، ولما ذهبت إلى قفص الدجاج وجدت الرجل ينظر من بين فتحات الشبك الحديدي، فسألته:

من أنت؟

فأجاب:

أنا الديك.

ولكنها لم تصدقه، وذهبت لتوقظ سالحة التي سألته:

من أنت؟

فرجاها أن تخرجه وسيذهب في حال سبيله، ولكن سالحة خرجت إلى الحي وطرقت باب جيرانها، ولما خرج الرجل قالت له بنبرة إخبارية عادية:
« حرامي في بيتي ».

وما أن سمع الرجل ذلك حتى طرق عدة أبواب وهو يصيح بانفعال:

« حرامي .. يابوعبدالله حرامي في بيت سالحة .. حرامي ».

وخرج الرجال وهم يربطون الإزازات أو يضعون غترهم كيفما اتفق، مستثارين بالنخوة، وماهي إلا دقائق حتى استنفر الحي كله، وأطلت النسوة وتبادلن الحديث والخبر. وظل الرجال يتحدثون، وأكلوا افطاراً مبكراً وشربوا شايًا، وتحدث أحد الكهول عن نوادر الحرامية، وقال: إن هذه أول حادثة منذ حادثة سالحة المجنونة نفسها، عندما كانت تضع أظلاف الماعز والصدف على جسمها وتختبئ في « السكة الضيقة » المظلمة التي تفصل بين المقبرة المدورة و"سكة الزبارة"، وتنتظر قدوم أحد الرجال لتخيفه بأصوات الاظلاف والبريق الفسفوري للأصداغ عندما يتحرك جسدها في الظلام، وتخبره بأنها جنية ليترك مالمديه ويفر هاربا، إلى أن اكتشفت وضربها الرجال بعصي الخيزران انتقاماً لرجولتهم المهدورة وجبنهم المفضوح.

كان ذلك من عشرين سنة كما أخبرهم الرجل الكهل، وبعد انطفاء حماسهم، وبعد مرور عدة أيام شعروا بالندم والشفقة على الحرامي، وأيقنوا أنهم تصرفوا بانفعال زائد.

حدثت أمور كثيرة في سنوات اختفاء بدرية، وبعض هذه الأمور كانت انعطافاً في حياتنا، ففي شتاء سنة من السنوات، بعد ظهر أحد الأيام، تحركت أوراق الشجر ورفعت الخراف رؤوسها واضطربت حركتها، وهاجت الجمال والحمير وهربت وهي تنهق بصوتها المبحوح، وطارت في الجو الحشرات التي تسبق هطول المطر، مبشرة بقدومه، ورفرفت الصيغان واندست تحت أمهاتها، وتحولت السماء إلى رمادية، وبدأ الرذاذ بالتساقط على وجوهنا وراحات أيدينا

المفتوحة، فأحسنا بالانتعاش ونحن نغني:

« طق يا مطر طق .. بيتنا جديد .. مرزانا حديد » ثم كبرت قطرات المطر، وأصبحنا نسمع صوت سقوطها على أوراق الأشجار وعلى الأرض، وازداد رثم المطر سرعة فغنينا بانفعال فرح:

« يا لله تزيده .. وترحم عبده ».

ثم لمعت البروق بشدة ودوى الرعد بصوت مخيف، وهطل المطر غزيراً فصاح أهالينا:
« خير .. خير ».

ولم ننم في تلك الليلة والليالي التي تلتها .. فقد فاضت البرك، وتسرب الماء من تحت الأبواب، وحفر المطر أخدوداً عميقاً في « البحرة » غرقت فيه بعض أغنام « أبو مجبل الشاوي »، وطفت منتفخة، وسبح كلبه إلى الضفة الأخرى لإنقاذ بعض الخراف، ولكن الأرض التي تقف عليها الخراف إنهارت وجرفها السيل بينما كان ثغواؤها الخائف مكتوماً، وحدث أمر غريب علينا إذ سقط برد أبيض كبير، وتراكم عند زوايا البيوت فترة قبل أن يذوب.

كان المطر خيراً في شكله ولكنه كان شراً في حقيقته على أهل حولي، إذ هدمت معظم البيوت الطينية، وغرقت مواشيههم وماتت بعض العجائز أما غرقاً أو من شدة البرد وآلام المفاصل أو بسبب حوادث سقوط الأسقف وتهدم البيوت، وتراكم الرجال وهم يضعون أكياس الخيش على رؤوسهم حاملين المعاول لتوسيع المزاريب عند الأبواب، ولحفر مزاريب جديدة تمتد من داخل البيوت إلي الخارج حتى تصل إلى « البحرة » وامتلاً الحي بأخاديد وخنادق طبيعية و صناعية، وأصبح المشي صعباً للغاية بسبب سيول المطر والريح القوية والطين، وانهارت قوة الرجال بسبب الإنهاك والتعب وقلة النوم، وملأوا أكياس الخيش بالرمل ووضعوها كالماتريس تحت جدران بعض البيوت المرشحة للسقوط، ولكن ذلك لم يمنع كثيراً من الحوائط من الانهيار، وتعرت معظم أشجار السدر من أوراقها، وامتلت الحواري بالدجاج والخراف والكلاب والقطط والفئران الطافية التي انتشرت رائحة تعفنها، وانتشر السعال كذلك وتفشت الأمراض وجاع كثير من الناس بسبب تهم مطابخهم، وتلف مالديهم من طعام.

كان بيت بونشمي أحد البيوت التي لم تتأثر بالأزمة لأنه بُني من الإسمنت المسلح وظل صامدا كقعة حصينة ينقر المطر على الأبواب الكبيرة بشدة ولا أحد يفتح، تجري السيول حاملة جثث

الحيوانات وأغصان الأشجار وبعض أغراض وأثاث أهل الحي من حوله دون أن يتأثر هذا البناء الضخم، و بعدحادثة المطر التي سميت « هدامة » لأنها هدمت البيوت، استطعنا جمع الكثير من الأحذية والملابس والعرائس والألعاب الطافية أو المظمورة في الطين وتعرفنا على أمشاط النساء الخشبية، وأواني مطعوجة وبحثنا علنا نجد ذهباً أو شيئاً ذا قيمة ولكننا لم نجد غير بقايا كارثة.

وبعد أيام لا نتذكر عددها هدأت العاصفة، ولكن ظلت السماء غائمة رمادية، وظل المطر يسقط على شكل رذاذ أحيانا ثم يتوقف، وظلت الأشياء مبللة يتقاطر الماء منها، و نقلت كثير من العائلات إلى المدارس المبنية حديثاً، وتكدست عائلات حولي في فصول المدرسة القريبة، وتشاركت مضطرة في غرف الدراسة، وفصلوا بين العائلات التي تهدمت بيوتها بواسطة بطانيات، علقت على حبال تقسم الفصل إلى قسمين، وحشر في كل قسم أطفال وعجائز أسرة واحدة، وبكت بعض النسوة لانفصالهن عن جارتهن وبناتهن المتزوجات، كما بكين على بيوتهن المنهارة التي تحولت إلى أطلال كئيبة تأوي الكلاب الضالة، وتذكرن غرف نومهن ومطابخهن وأشياء زينتهن، وصاح بعض الأطفال طالبين لعبهم التي جرفها السيل.

وبعد أيام وصلت شاحنات حكومية كتب عليها « دائرة المعارف » و « دائرة الأشغال العامة»، تحمل مؤناً إلى العائلات المتضررة، وظهر بونشمي وهو أكبر سناً بكثير كما بدا وهو يشرف على توزيع بطانيات كتب عليها « صنع في بريطانيا العظمى»، كما وزعت أكياس الرز والفواكه والكثير من المعلبات، ولأول مرة نتعرف على « جبن الكرافت».

وأحسنا بالوفرة، وانتابنا شعور بالذنب لأننا ظلمنا بونشمي الذي يبدو للجميع أنه انسان طيب، يبذل الكثير من المال لمساعدة الآخرين. ولكننا عرفنا بعد سنوات أنه استورد هذه المؤونة علي عجل وباعها للحكومة التي اشترتها فوراً لحاجة الناس المنكوبين لها.

وسمي العام بسنة « الهدامة»، وأصبحت الحادثة علامة يؤرخ عليها الكثير من الأشياء والأعمار، فيقال أن فلان ولد قبل هدامة بسنتين.

صحيح أنه بعد هذه الحادثة تحسن مستوى معيشة الناس ولكنها تركت في داخلهم جرحاً لا يندمل.

كان لابد لفهد أن يمر بمنطقة « السينير »، وهي المنطقة الغربية والشمالية التي يقطنها الموظفون الانجليز وبعض الهنود في منطقة الأحمدى. كان الهدوء يسود المنطقة إلا من موسيقى أجنبية وضحك خلاعي يطلق من حديقة أحد البيوت المبنية على الطراز الإنجليزي.

وصوله إلى زملائه الذين وعدهم بأن يأتي إليهم في موعد محدد يقتضي منه أن يمر في هذه المنطقة المحرمة على العمال، و إلا احتاج لوقت طويل للالتفاف على منطقة سكن الموظفين الانجليز والأجانب والتي تدعى « سينير ستاف » وتعني كبار الموظفين، ولو تطلب الأمر أن يفعل ذلك قبل سنتين أو ثلاث لما فعل، بين أن الشيء الكبير الذي ملأ صدره بنى شخصيته أيضا، هذا الشيء الذي نتج عن اصطدامه بحائط عال وصلد، الشيء الذي كتفه دون أن يعرف كنهه .. أن تؤخذ بدرية منه دون وجه حق، ودون أن يستطيع فعل شيء.

نظر إلى السماء وإذا بالغيوم تسبح مارة بنصف القمر الذي صبغ أطرافها باللون الأزرق، فاحت رائحة العشب والأشجار التي تغطي بيوت الانجليز عندما هبت نسمة غربية باردة، فتفتحت خياشيم فهد، واستنشق هواء هضبة الأحمدى المحمل بعبير خضرتها الندية.. كانت أضواء المنازل ترتمي بهدوء على الشوارع الإسفلتية المغسولة بالمطر.

كان يتنقل بين الشوارع كالشبح، يختار المناطق قاتمة الظل، اقترب من البيت الذي تنبعث منه الموسيقى. ولكن كان هناك حركة وأصوات حوافر خيل على الإسفلت، اختبأ فلم يلاحظه أحد. كانا رجلي أمن المنطقة على صهوتي جواديهما. رغيهما يدل أنهما هنديان، ابتعدا قليلا فأطل فهد عبر السور المصنوع من البردي .. رجال ونساء انجليز يرقصون ويشربون، وبينهم بعض الرجال الذي يلبسون الغتر والعقالات.

« ستوب »!

صرخ الخيال في الظلمة، ثم أسرع حوافر الخيل على الاسفلت تدق بصوت له وقع مهيب

في نفس فهد الذي جرى بأقصى سرعته هارباً، فأخرج الحارس الهندي صفارته التي كان يعلقها بحبل مفتول حول كتفه، ثم تمزق السكون بصفير عال، فاستجاب له صفير في جميع أنحاء منطقة «السينير»، وأضيات الأنوار في بعض المساكن، و أطل بعض السكان الانجليز من نوافذهم بحذر، بينما أخذت أحدهم حمية فخرج بروب النوم حاملاً مسدساً وزوجته ملتصقة بظهره.. وصهلت جياذ الحراس ودقت حوافرها في الطرق المشجرة في هذه المنطقة التي لا تشبه أي منطقة في الكويت لجمالها وهدوئها وتنظيمها الأوربي، واقترب الخيال من رجل وزوجته وحياهما باحترام كبير:

مساء الخير سيدتي .. سيدي ..

فصرخ الرجل منزعاً:

ماذا حدث؟

لاشيء .. اطمئنا .. شوهد عربي في المنطقة.

فنبرت الزوجة بهلع:

لاشيء .. كيف لا شيء وأنت تقول أن رجلاً عربياً يحوم في الجوار؟!!

فقال الحارس الهندي مطمئناً:

لا تقلقي يا سيدتي .. سيقوم رجال الأمن بالقبض عليه .. و اقترح أن تعودا إلى الداخل

فالرجل مازال طليقاً.

ثم استدار بعد أن حياهما ليعطي تعليماته بلغة الأوردو إلى خيالة الأمن، و بدا من لهجته أنه كان حازماً، فانطلقت الجياذ في اتجاهات مختلفة.

أما فهد فقد قفز خلف أقرب سور، وانتقل من منزل إلى آخر عبر الأسوار، و قلبه يخفق بشدة، وفي أحد البيوت صرخت سيدة بالإنجليزية:

إنه هنا .. الحرامي هنا .. النجدة ..

ثم أغمى عليها .. ركض فهد في الشارع فاعترضه خيالان، ووقف الجوادان على قوائمهما الخلفية عندما أراد فهد الإندفاع بين الحصانين، ولكن أحد الحارسين هوى على رأسه بعصاه فسقط على الأرض، وهوى الآخر ولكن فهد رفع ذراعيه فوق رأسه فأتت الضربة على ساعده .. امتدت يدا فهد وأمسكت بتلابيب أحد الحارسين وجره من على حصانه، وعندما نزل الثاني بعصاه أمسك فهد بالعصا وسحب الرجل وأطبق على عنقه وأنزله أرضاً، ثم انهال على

الاثنين بالعصا حتى تركهما بلا حراك وهرب متعمداً البحث عن الأشجار والأماكن القاتمة، وظل يسير مترنحاً وقد اختلط دمه النازف من رأسه بتراب وجهه، والواضح أنه أحدث ريكّة في حياة الإنجليز القاطنين هناك في تلك الليلة، وأقلق منامهم، فقد تعالّى صفير حراس الأمن مختلطاً بصوت حوافر الجياد بكلمات هندية وإنجليزية منزعجة، بعضها يأخذ نبرة الأمر..

بعد فترة النكبة عرفنا أشياء كثيرة جديدة، وظهر مسؤولون حكوميون لم نكن نعرفهم، كما بدأنا نسمع الرجال يتحدثون عن المساعدات الحكومية لإعادة بناء المنازل وكلمات أخرى، أكثرها ترديدا كلمتا « ترميم » و « ترمين » ثم دارت أحاديث بين الرجال حول قيمة أكياس الأسمنت، وحول مقاولي دائرة الأشغال العامة، وعن بونشمي الذي استورد للحكومة كميات كبيرة جدا من الأسمنت والحديد ومواد البناء، ودفعت مساعدات حكومية لتجديد البيوت وبنائها من الأسمنت، أو بناء جزء من البيت من الأسمنت وإبقاء غرف أخرى من الطين الملبس بالأسمنت، وبلطت أحواش وأفنية البيوت بالبلاط الذي جلب من مصنع بونشمي للبلاط، أو البلاط الأصفر الذي يعرف ببلاط البصرة، وازدهرت حركة البناء وأصبحت معظم البيوت مبنية بالطابوق والأسمنت المسلح، ولمع اسم بونشمي كمنتفذ له علاقة بتجديد البيوت أو ترمينها، سواء على مستوى القرار أو على مستوى توفير مواد البناء.

وفرح سكان حولي ببيوتهم الجديدة، وتحدثوا عن ثروة كبيرة قادمة من «شركة الجاز»، وأصبحوا يتحدثون عن البترول الذي يأتي بالثروة والغنى، وازداد عدد السيارات في الحي، وذهب كثير من الرجال للعمل في الدوائر الحكومية، وأصبح العمل في الحكومة امتيازاً كبيراً، وبدأ الرجال يتحدثون في مجالسهم عن المسميات الوظيفية كرئيس قسم، ومراقب، ومحاسب، وأمين مخزن، وأصبح الذكي فيهم من يعرف هذه المسميات ومسؤولياتها، ودون أن يفهموا لماذا عين بونشمي بمنصب إداري كبير، وسلم البعض أن المسألة مسألة مقامات، هذا قبل أن يعرفوا شيئاً عن الشهادات.

وتغيرت معالم الحي، وازداد عدد السيارات الواقفة أمام البيوت، وظهرت مظاهر جديدة، إذ انتشر الباعة المتجولون الذين يحملون بقجة على أكتافهم ويصيحون:

« خام .. خام ».

إذا كانت البقجة مليئة بالأقمشة أو يصيحون:

« بياعة بياعة .. بياعة بياعة».

إذا كانت البقجة مليئة بالبضائع الأخرى مثل ألعاب الأطفال، وأكياس الحناء وأمشاط النساء، وبعض البلوزرات الحديثة وإبر الخياطة والملابس النسائية الداخلية كالسوتيات. فصاحب البياعة يحمل بضائع تبلغ من التنوع إلى حد مشابك الغسيل والكباريت والملابس والنعال و« الديرم» والكحل والبخور، وأدوات المطبخ، والصابون، وأعواد السواك مع فرش الأسنان التي رآها أهل الحي لأول مرة، إضافة إلى أقلام رصاص وبرايات و فخاخ لصيد الفئران وليف حمام، وكل ما يلفت نظر امرأة أو رجل أو طفل والوحيدون الذين يكرهون الباعة المتجولين هم العجائز الرجال .. وكان هؤلاء الباعة من اليمن أو عمان أو المهرة.

ثم إنتشر جهاز المذياع بشكل واسع، هذا الجهاز الذي سمع عبره الرجال خطابات جمال عبدالناصر و أغاني أم كلثوم، فقد كان الرجال يفرشون البساط في البحرة ويضعون المساند، ويوصلون جهاز المذياع ببطاريات السيارات ويجلسون للتسامر في ضوء القمر، ويلعبون في كثير من الأحيان الورق والدامة، ويشعلون اللببات في الليالي المعتمة أيضا بتوصيلها ببطاريات السيارات.

وأصبح ارتياد السينما شيئا عاديا، وأصبح أهل حولي يسمرون في البحرة يرون أضواء المدينة.

**

قليل من أهل الحي يعلم ماذا حدث لبدرية منذ أن تزوجت بونشمي في تلك الليلة المشهودة التي لن تنسى أبداً .. قليل منهم يعلم أن بونشمي عندما طرد الفرقة في تلك الليلة كان في منتهى السخط لأنه كان عاجزاً عن مضاجعة بدرية، لم يشك من عجز قبل بدرية ولكنه عندما اقترب منها بينما كانت مذعورة، أحس بأنه عجوز وبأن آلاف العيون تراقبه، حاول استجماع سيطرته وسطوته وتمثل قوته وسلطانه بيد أنه فشل تماماً أمام بدرية، و فكر .. هل هي النهاية؟!

وعلقت أم نشمي أمامه لاحقاً بمنتهى التهور:

« هذي حوية بدرية».

هناك شيء في عيني الصبية يضعفه، شيء يكرهه، شيء يتحداه هو بونشمي الذي لم يعجز يوماً عن امتلاك أي شيء، ولكن عجزه مع بدرية هز كيانه وأضعف ثقته بنفسه، وأصبح يرغب فيها أكثر من أي شيء ويكرهها أكثر من أي شيء، كانت تحدياً لرغبة الامتلاك، وظل يحاول لفترة طويلة دون أن يخبر أحداً، ولكن مزاجه ونفسيته كانا في تدهور دائم .. ضرب صبيانه لأتفه الأسباب، وحطم كأساً على الحائط جلبته إحدى زوجاته مدعياً أن هناك شعرة في الماء، وبصق بوجه عيسى مساعده، وساعده الأيمن منذ سنوات شبابه الأولى، وحاول حل الموضوع دون اللجوء لمساعدة أحد، فحاول بالشدّة والترهيب مع بدرية وضربها كثيراً، وحاول بطرق أخرى فأغدق عليها بالذهب والملابس ولكن لا فائدة..

وهجره عيسى لأسبوع كامل، وقدم استقالة مكتوبة احتجاجاً على سوء معاملته له .. ولكن عيسى الذي حدس الأمر بفراصة من يعرف بونشمي حق المعرفة، كتب استقالة ذكية، ذكر فيها أنه قضى سنوات عمره في خدمته باخلاص وأنه كان كتوماً على أسراره وعلاقاته النسوية الشخصية وغيرها، و أنه يأسف بعد كل هذه السنوات أن يعامل هكذا، وأنه يعتبر البصقة أمراً مهيناً له وخاصة أنها حدثت أمام الصبيان، وأنه كان يستطيع ابتلاع الاهانة وتفهم حالة بونشمي لو كانا لوحدهما.

كانت تلميحات عيسى ومقاصده واضحة لبونشمي، فاستدعاه ليس لحاجته له في هذا الأمر فقط، ولكنه يعرف أنه لا يستطيع إدارة شؤونه وأعماله التي اتسعت وتنوعت دون عيسى، فعيسى إداري بالفطرة ورغم تعليمه المحدود إلا أنه يستطيع إدارة أعمال بونشمي وهو نائم كما يردد بونشمي دائماً، فقد قضى عيسى حياته فعلاً في خدمة بونشمي، وتعلم اللغة الإنجليزية محادثة منذ أن عمل وهو طفل في العراق مع الضباط الإنجليز، ولم يتزوج فقد كان متفرغاً كلية لبونشمي.

**

حضر عيسى إلى بونشمي وسلم عليه وجلس وكان شيئاً لم يكن، استمع إلى قصة بونشمي

مع بدرية ولم يفاجأ بالأمر لكنه اقترح قائلاً:

« طال عمرك .. الرجال العظام يفقدون همتهم الجنسية أسرع من الرجال العاديين والدهماء، ولا أستغرب أن يحدث هذا لك، حيث أنك من هؤلاء الرجال العظماء». ارتاح بونشمي وسر لهذه المقدمة، وأدرك أن عيسى نعم المساعد، وطلب من الصبي أن يصب القهوة، وأكمل عيسى بعدما رشف فنجانين تباعاً وهو يعلم كيف يدار الحديث مع بونشمي:

« البنت غشيمة، وأنت فحل .. تحتاج إلي امرأة تتناسب مع خبرتك ..»

هز بونشمي رأسه وقد بدأت همومه تنحسر، وسأل عيسى:

هل تعتقد أن الطلاق أفضل؟

فأجاب عيسى بدهاء:

« بالعكس .. تطبيقها قد يثير ما يثير من أقاويل حولك .. »

و نظر في وجه بونشمي الذي بدا الانشراح عليه واستطرد:

برأيي أن تبقيتها وتبحث عن امرأة خبيرة تشدذ همتك من جديد..

مثل من؟

مثل « رومية».

رومية؟!!

وتراجع الانشراح وظهر الامتعاض على وجه بونشمي، بيد أن عيسى لن يبدو كصاحب الرأي غير السديد، فاستطرد على الفور:

نعم رومية .. هل تذكر ليالي الأنس والطرب التي كنا نقضيها في منزلها حتى الفجر ؟

ولكن رومية ..

.. هل تذكر شعرها الفاحم عندما تلفحه، و خصرها الذي يتلوى وهي ترقص؟.. أنا لن

أنسى تلك الليالي التي قضيناها بالطرب والغناء والأنس، كانت رومية كالحورية بفمها المخضب وضحكاتها وغنجها وغنائها، لم أشاهدك سعيداً قدر تلك الأيام، رومية التي أحبتك وكسرت قلوب الآخرين.

بونشمي كان مطرقاً رأسه.

تنط « عبادين » وعبث بمنخريه وأدار سلسلة على إبهامه أمام سيارة بونشمي الذي كان يمشي على رجليه .. مر بونشمي بجرجر رجليه وقد انحنى ظهره بمجموعة من البنات اللواتي كن يلعبن ويغنين: « طاق طاق طاوية .. رن رن يا جرس .. الثعلب فات فات .. بيدينه .. سبع لفات ..

ثم تقول تلك التي تدور على حلقة الفتيات الجالسات:

« جاب لي مكتوب لصاحبتي .. وحده منهم أخذته .. »

كان السائق يتبعه بالسيارة ببطء شديد .. وكلما اقترب من زحام، يفتح باب السيارة وهي تسير ويخرج جسمه صارخا:

« درب .. درب ».

ولكن عبادين ظل يسير ويتنطط أمام السيارة، ويضحك طويلا كلما سمع بوقها، فاضطر السائق أن ينزل من سيارته ويبعده بركلة قوية علي مؤخرته.. وظل عبادين يفرك مؤخرته ويبصق على السائق وعلى بونشمي من بعيد قائلا:

« انتوا اللي ذبحتوا ابن بطيح » .. انتوا اللي بقتوا فلوس حجية شمة.

كل ذلك لم يؤثر في بونشمي على أساس أن عبادين مجنون ولا يعتد بكلامه حتى قال:

.. انتوا اللي بقتوا بدرية وحبستوها..

التفت بونشمي بعينين غاضبتين وأشار للسائق الذي أوقف السيارة على الفور ولحق بعبادين وأمسك به وأوجعه ضرباً.

تجمعنا حول عبادين المعفر بالتراب .. كان يبكي بينما امتد خيط لعاب من جانب فمه .. وظل يردد بصوت أضحكنا.

« انتوا اللي ذبحتوا ابن بطيح .. وبقتوا فلوس حجية شمة .. وحبستوا بدرية.. » فحركت

الأخيرة شجوننا..

تقول أمهاتنا أن عبادين لم يكن مجنوناً، بل كان شاباً من زينة شباب حولي، ولكن اختلف أهالي حولي في سبب جنونه، فهناك من يقول بأن جنية أحبته وهامت به فدخلت فيه وأطارت بعقله، ويحكي البعض بأن الجنية هي « أم السعف و الليف» وهي تلك الجنية التي تمتطي سعف النخيل وتطير به، وشعرها عبارة عن ليف .. والبعض الآخر يؤكد أن مرضاً أصابه وعولج بالكي على رأسه مما أفقده عقله..

وتحكي عجائز حولي المعمرات أن عبادين عاش مع الموت فترة طويلة .. وحكت لنا عجوز درداء فقدت كل أسناتها بينما كانت تهرس القرع المسلوق وتزدرده .. حكّت العجوز عندما ألحنا عليها:

أنه في ليلة مضطربة، اتجهت فيها كل قمم الأشجار إلى الجنوب بفعل الريح القوية، القادمة من شمال بعيد .. واضطرب الغيم الداكن كدخان يخرج من فم تنين ضخم، ماتت أمه نصف ميتة..

فاندھشنا وسألنا:

نصف ميتة؟ كيف؟!؟

وتحركات شفتا العجوز المجعدتان بينما نبت شنب فوق شفتها العليا .. وبصوت مرتجف أشبه بنعيق الغراب أكملت:

مات النصف الأيمن منها بينما بقي النصف الأيسر نضراً كسجد حورية، مات نصفها بينما كانت تلد عبادين في زاوية بعيدة في مقبرة مهجورة ...

رفعت العجوز العانس التي لم تتزوج قط شعرات طويلة من حاجبيها عن عينيها، وتطلعت فينا بعينين بيضاوتين، فالتصقنا ببعضنا جزعاً .. ثم قالت:

الله أم أحفظنا .. لا أحد يعلم لم أرادت أن تلد بالسر .. قيل أنها أرادت أن تلده و تدفنه في نفس المكان .. وقيل أنها كانت بنت عائلة أصيلة معروفة، أحببت خادمهم ولأن أهلها عارضوا زواجهما وطردهوا الخادم شر طردة، وقع المحظور بينهما، وكبرت الفضيحة في بطنها بينما كان والدها وأخوتها في الغوص والسفر .. وأخفتها والدتها عن الباقي بافتعال مرض طويل .. وطويل.. ولما حلت الساعة وطالب الجنين بحقه بعد سبعة شهور كانت كسبعة

دهور، ذهب الخاطئة المسكينة إلى مقبرة مهجورة لا يدخلها غير الجن، ولأن المقبرة لم تطأها قدم انسان منذ سنين نبت فيها عشب كثير، ونبات كثيف، فعظام الميت الصالح تكون خير سماء للأرض .. اذهبوا إلى أي مقبرة وعندما ترون عشباً أخضر فوق قبر اعلموا أن هذا قبر إنسان صالح أو طفل لم تدنسه خطايا الدنيا.

ورغم أننا ظللنا نرتجف خوفاً مما يحكى ومن صوت العجوز إلا أننا كنا مشدودين مشدوهين بكل كلمة تخرج من هذا الفم المخيف الذي يشبه المغارة، وأكملت العجوز بينما نسي بعضنا أن يمسح المخاط الذي نزل من الأنف على الشفة العليا:

كانت ليلة تصارع فيها الشياطين مع الجن الصالحين، فعوت الكلاب طويلاً وخرج بعض الرجال الجسورين حاملين بنادقهم لقتل الكلاب التي تعوي، حيث أن عواء الكلب شؤم، وقبع سكان حولي في بيوتهم ولم يناموا وكثر الدعاء، وتعوذ الناس كثيراً من إبليس ..

عضت الأم على أصابعها من الألم حتى أدمتها .. كان المخاض شديداً، قوياً وكان عليها أن تعتمد على نفسها في توليد نفسها، عصرت نفسها، وضغطت على بطنها وما أن سقط الطفل على رأسه حتى انهارت الأم، وأحست بخدر يسري كجيش النمل في جانبها الأيمن، ومن أصابع قدمها حتى قمة رأسها .. حاولت تحريك يدها اليمنى أو رجلها عبثاً .. مات نصفها الأيمن .. ماتت رجلها اليمنى ويدها اليمنى والتوى نصف فمها الأيمن، وأغمضت عينها اليمنى .. بينما ظل نصفها الأيسر حياً يدل على جمال وجهها وروعة جسدها .. صرخ الطفل فتردد صدى الصوت في أرجاء المقبرة الموحشة.

سكتت العجوز ودارت الكرتان البيضاءوان في محجريهما .. ثم فحت كالأفعى وأصابع يدها المجعدة كأغصان سدره جرداء ترتجف وهي تشير إلى السماء قائلة:

القدرة الإلهية حلت في تلك اللحظة .. عاقبت الخاطئة فأماتت نصفها كعقاب على ما اقترفه جسدها وقلبها .. وأبقت نصفها حياً رحمة بالطفل الوليد..

صمتت العجوز وتحرك فكاها كأنها تأكل الفراغ .. ورفعت ركبتيها النحيلتين حتى أصبحت زاوية حادة، عجيزتها تشكل رأس الزاوية .. امتدت يد العجوز إلى الصحن الذي أمامها تتلمس بقية قطع القرع وكأنها تريد أن تتأكد أننا لم نسرق شيئاً ثم قالت:

وكان أهل الحي يسمعون في الليل بكاء طفل رضيع من المقبرة، فكانوا يهربون، ويمنعون أولادهم من الاقتراب منها لأنها مسكونة، وبعد أشهر .. ربما خمسة أو ستة أشهر

.. جاء الشاوي «دحيم» وقد ابيض شعر رأسه ولحيته إلى رجال كانوا يجلسون على دكة .. ثم وقع على وجهه وتعفر بالتراب، فحملة الرجال وسألوه عما جرى له، ولماذا ترك قطيع الغنم، ولماذا كان يركض كأن ذنباً يلاحقه .. فطلب ماء، ولما سقوه واطمأن حكي لهم ما رآه: كان يسرح بالغنم ومر بجانب المقبرة المهجورة لقضاء حاجته تحت جدارها، وفجأة رأى شيئاً لم تصدقه عيناه .. رأى طفلاً يجلو ويطل برأسه من فتحة في أسفل جدار المقبرة صنعت خصيصاً حتى يتسرب ماء المطر منها .. تعوذ «دحيم» من الشيطان الرجيم وكان يعلم أن هذه المقبرة يسكنها الجن .. اقترب أكثر من الفتحة فشاهد طفلاً يطل برأسه منها، وقد كان الدود يزحف على وجهه ويأكل من لحم خديه ورقبته الطرية، ولما رأى الطفل «دحيم الشاوي» دخل بسرعة إلى المقبرة، فارتاع دحيم لما شاهده، ورحل الدم عن وجهه وابيض شعره وترك كل شيء وركض باتجاه حولي ولم يتوقف حتى شاهد الرجال..

هدأ الرجال من روعه، وتضاربت آراءهم فبعضهم لم يصدق واعتبر الرجل مخبولاً، وربما أثرت الوحدة وحرارة الشمس على عقله، بينما دفع الفضول الرجال الآخرين لمعرفة الحقيقة، وظلوا يومين على هذا الحال حتى قرروا أن يذهبوا جماعة إلى المقبرة ليكتشفوا الأمر. وذهب الرجال بعد أن تسلحوا بالعصي والسكاكين والبنادق والقضبان ، وحمل أمام المسجد قرآناً معه كي يطرد الشياطين، وعنف الرجال أطفالهم وضربوهم عندما أمسكوا بأطراف دشاديشهم، ثم أصبح الأطفال يتبعونهم من بعيد، وصرخت النساء خوفاً على أطفالهن.. وعندما وصلوا المقبرة .. قرأ الإمام بعض الآيات، ثم اقترب أحد البحارة وانهاه بفأسه على القفل الضخم والسلسلة المتينة التي كانت تقفل الباب الخشبي الذي تكسرت بعض الواحه بفعل الزمن .. وماهي إلا عدة ضربات حتى انقطعت السلسلة الصدئة .. ثم دفع الرجال الباب الذي تراكمت خلفه الرمال والأعشاب بعد أن سموا باسم الرحمن، وتعودوا من شر ما خلق .. ولما دخلوا ..

وهنا سكتت العجوز، واتسعت عيناها البيضاءوان، حاول أحدنا التسلل هاربا فأمسكنا بطرف دشداشته وأجلسناه عنوه، تمايل جسد العجوز إلى الأمام وإلى الخلف وصدر منها ما يشبه الأنين، وقالت بصوت منخفض ولكنه حاد النبرات:

سبحان من أحى العظام وهي رميم .. سبحان الخالق جلت قدرته .. لم يحتمل بعض الرجال هول ما رأوا فأغمي على بعضهم وكان بينهم إمام المسجد الذي ظل يبكي وهو يقول :

لا حول ولا قوة إلا بالله.

ماذا رأوا .. رأوا طفلاً يرضع من ثدي أمه الأيسر بينما أكل الدود نصفها الأيمن ..
وزحف الدود على جسد الطفل ووجهه، ولولا رحمة الله لأكله كله ..
ولما رأى الطفل هذا الجمع صرخ جزعاً والتصق بأمه، ولما حاول بعض الرجال أقوياء القلب
حملة بعيداً تشبث بما تبقى من أمه ..
دفن الجسد المشوه بعدما انهال عليه أحد الرجال بضربة من فأسه هشمت رأس المرأة.
تسلل أحدنا وهرب، ثم هرب الآخر والآخر وأصابتنا جميعاً عدوى الخوف فانطلقنا راكضين
ونحن نتلفت خلفنا.

**

وسمعنا بقية القصة فيما بعد من أناس مختلفين، فبعضهم يقول: أحضر الرجال الطفل وتجمع
حشد كبير من أهالي حولي لمشاهدته، ولكن النساء سرعان ما تحرك داخلهن شعور الأمومة
أمام طفل يبكي بحرقة فقامت إحداهن وأخرجت ثديها ووضعت حلمته في فم الصغير، بينما
أحضرت أخرى ملابس رضيعها وألبسته..

أما إمام المسجد فإنه بعد ما تمالك نفسه وقضى بضعة أيام في قراءة القرآن والتعبد لله، أمر
بأن يكوى الطفل على رأسه كي يطرد منه الشياطين والجن التي كانت تعيش معه في المقبرة
... وقام بكويه بنفسه بعد أن سخن قضيباً لدرجة الاحمرار وبسمل وتعوذ، ثم ارتفعت رائحة
شواء من رأس الطفل الذي ظل مريضاً عدة أسابيع وشارف علي الموت .. ولكنه نجا
بأعجوبة، وأطلق عليه الناس اسم « أبوقبير » لأنه خرج من المقبرة.

ولكنه بعدما كبر ارتأى بعض أهل الحكمة أن يسمى باسم من أسماء البشر، ولم يجدوا أفضل
من عبدالله .. وما زال الناس وبعد أكثر من أربعين عاماً على الحادثة ينادونه بعبادين ..

عبادين الذي أصبح يسير ويتكلم كالأبله، لا أحد يعلم هل ذلك بسبب الكي أم لأن الناس عاملته

وكأنه ليس بشراً، ولذلك ظهرت قصص كثيرة حول علاقته بالجن، وأقسم كثير من الناس أنهم رأوه طائراً مع أم السعف و الليف.

حتى بعد أن رأوه مدهوساً في الطريق بينما كان يمسك بعلبة عروسة معفرة بالتراب وملطخة بالدم الذي كان متخثراً على زاوية فمه وعلى وجهه ذي الحفر التي تشبه حفر الجدي .. حتى بعد ذلك أقسم كثير من الناس أنهم رأوه طائراً مع أم السعف والليف.

أما أمه فلم يعرف أحد من هي، وكثرت القصص وقيل أنها بدوية جاءت من الصحراء، وقيل أنها جاءت من الإحساء، والبعض قال أنها جنية، وبناء على ذلك نسج الناس قصصاً طويلة ومتنوعة لم يعرف أحد الصدق والخيال فيها ورغم ذلك لم يعرف من هي الأم..

لم تصدق رومية الخبر الذي نقله لها عيسى:

بونشمي سيسهر عندك ليلة الجمعة القادمة.

ولم تدر ماذا تفعل بنفسها التي أهملتها منذ زمن بعيد وبيتها الذي لم يشهد سهرات منذ سنوات ينست من عودتها، بعدما كبرت وتمدد جلدتها، وبهت لونها وظلت لساعات طويلة تحديق بوجهها عبر المرآة، وتضيف عليه الأصباغ و الكحل ..

تشتتم رائحة السرير .. رائحة البخور .. وتتفقد زخارف السرير التي تكسر بعضها، وذهب دهان بعضها، وبحثت عن أغطية السرير الموشاة بالدانتيل، ولكنها وجدت أن العثة قد لعبت بها جميعا.

فتحت الصندوق الخشبي المزخرف بالمسامير، والذي يحوي أساور لم تعد موجودة وملابس جلبت خصيصاً لها من بغداد ودمشق والقاهرة وبومباي .. عندما كانت تلبسها في ليالي الأتس، كان الرجال المخمورون يتنازعون عليها، وعندما كانت ترقص كانوا يقذفون بأوراق النقود وبساعات الجيب الذهبية والفضية تحت أقدامها البيضاء، التي كانت تدقها على الأرض فترن الحجول الذهبية التي تطوق كاحليها.

غنت ورقصت بنشوة، وتلامعت حبات العرق على جبينها، وقام الرجال المهابون بخلع غترهم ومسح وجهها.

وبعد أن ينتهي الرقص، كانت تجمع مئات الروبيات من حزامها وفتحة صدرها، ومن على الأرض ..

ورغم أنها كونت ثروة لا بأس بها، استطاعت بها جلب مساعدات لها وشراء بيت كبير في نفس حي « الرميطة » .. إلا أن هذه الثروة تبددت على نفسها وضيوفها، وتبدد ما تبقى منها في أيام كسادها، فرومية تحب الحياة، عوضت كل سنوات الفقر في طفولتها، وأغدقت على نفسها بالحلي والحريير وأدوات الزينة، وحولت غرفة نومها إلى غرفة ملوكية فالسرير كان من الصاج الأسود المطعم بالعاج والزخارف الهندية، وكان فوقه غلالة شفافة من الدانتيل، وأغطية الفرش حريرية موشاة، كانت تأتي بالأقمشة وأدوات الزينة من القاهرة، وهي من النساء القليلات اللاتي كن يصبغن أظافر اليدين والقدمين بالأصباغ الحمراء المستوردة ..

ولذا كانت تبرز قديمها لضيوفها دائما.

وكانت تغدق على ضيوفها بأذء المأكولات وشراب العرق؁ وهم كانوا بالمقابل يغدقون عليها بالهدايا والنقود والفواكه.. كانت تعرف مقام ضيوفها ولذا توفر لهم أسباب الأأس والراحة .. كانت الاسطوانات التي تنبعث من جهاز الحاكي تسمع من بعيد؁ هذا الحاكي الذي استغرب البعض عندما شاهدوا وسمعوا الأغاني تنبعث من سماعته التي تشبه القمع الكبير.

لقد مر عليها رجال كثيرون؁ كبار وصغار؁ متزوجون وعزاب؁ تجار؁ و«طواويش»؁ أصحاب مقامات؁ أسماء معروفة .. كلهم تحولوا إلى أطفال طيعين بين يديها .. أسكرتهم بخمرها وفتنتها؁ وكسرت قلوب بعضهم فراح يقول شعراً باكياً فيها؁ وتنفذت وتدلت؁ و تدله في حبها الكثيرون ...

ففي الوقت الذي كانت بيوت الطين في الجانب الآخر تغط في نوم وظلام عميقين؁ كان بيتها في الرميلة يشع بالأأنوار ويعج بالصخب والضحك والغناء والنكات البذيئة.

وظل الرجال يحلفون برأسها .. ثم ظلوا يتحسرون على تلك الأيام:

أيام رومية وعزها.

وبعضهم تاب واستغفر وحج.

وعندما كانوا يرونها بعد سنوات تجرجر عباءتها المغبرة في الأسواق؁ كانوا يشفقون عليها ويتحسرون على شبابها وعزها؁ وكانت تقف أمام الدكاكين تسلم على زبائنها القدامى ولم تكن تطلب شيئاً؁ ولكنهم كانوا يعلمون أنها تريد مساعدة؁ فكانوا يمدون أيديهم مضمومة على النقود ويدسونها في يدها؁ وفي البداية كانت تتمنع:

« خيرك سابق يا بوعثمان .. والخير واجد والحمد لله».

« اخذي يارومية .. مايندرى عن الدنيا ونوايبيها .. وما عندنا إلا حلالك».

« عسى الله يطول عمرك يا بوعثمان ويخليك عيالك».

ثم تحاول محاولة يائسة:

« ما تمر علينا؟»

« ماني فارغ والله يارومية .. هالشغل وهالعيال ماخذين كل وقتي .. لكن انشالله نلاقي

لنا فرغة ونتقهوى عندك».

لم يأتوا قط رغم الوعود؁ فتوقفت عن دعوتهم .. وأصبحت تمر على زبائنها تطلب منهم

مساعدة، وأصبحوا يضيّقون ذرعاً بها .. حتى إذا قدمت على أحدهم قال لأحد صبيانه:
« عطاها المقسوم وقول لها بوفلان مشغول».

رومية شيخة الطرب عرفت رجالاً كثيرين، ولكنها لم تعرف مثل بونشمي بقوته وسطوته
ووسامته ونعومة ملمسه، لم يكن مثل باقي الرجال، كانت تطفح من خديه سيماء النعمة
والتغذية الجيدة، كان كفاه الجميلان ناعمين، كان في عينيه بريق ينم عن ذكاء ونفوذ وثقة
بالنفس، وعندما تقترب من صدره بقلب نابض تشم رائحة البخور ودهن العود والورد تنبعث
من جلده وملابسه المهندمة الناصعة.

كان يدخل عليها بطوله الفارع، يلمع شاربه الوسيم المفتول فوق ابتسامته الساحرة يتبعه
عيسى وأحياناً صبي أو اثنان من صبيانه، وما أن يجلس حتى تركع رومية عند قدميه تخلع
عنهما نعليه .. وفي الليلة التي يسهر فيها عندها كانت لا تستقبل أحدا مهما علا شأنه ..
ترقص له وحده وتخدمه بيديها، عشقته ومنحته كل شيء واستغنت عن رجال كثيرين، وكانت
ترسل إحدى مساعداتها لتقول لمن عند الباب:

« رومية مريضة ولا تستطيع أن تستقبلك».

وعندما يغيب عنها بونشمي، كان تظل طوال الليل تبكي وتدخن وتشرب العرق .. كان كريماً
سخياً معها، اشترى لها الكثير من الحلي والملابس، وكان ذا سطوة جباراً، فقد كان يضع
مئات الروبيات على قدمه و يقول لها:

خذيها.

وكانت تأخذ النقود وتمسك بقدمه تقبلها، فيقهقه بصوت مجلجل، فتقول له والدموع في
عينها:

خدامتك .. عبدتك.

قضت معه أجمل أيام وليالي حياتها .. فهو يختلف عن باقي الرجال .. كان يغني بصوت
جميل، ويضحك ويشرب كثيراً دون أن يسكر، ويسهر حتى تنتصف الشمس في صدر السماء،
ولكنه كان قاسياً فظاً، فكان كثيراً ما يصفعها فتقبل راحة كفه، وكثيراً ما يخرج مسدسه
الملفوف بمنديل أحمر من جيبه ويضع فوهته على رأسها أو رأس أحد صبيانه .. وكثيراً ما
كان يسخر من صبيانه ومنها فيجبرها أن تمتطي ظهر أحد صبيانه، ثم يجبر عيسى أو أحد
صبيانه أن يمتطي ظهرها، فكانت دموعها تنساب بين الضحك والبكاء بينما يستقلي هو على

ظهره مقهقهاً بصخب .. ورغم ذلك كانت تحبه حد العبادة وتنفذ له كل ما يطلب.
قالت له احدى المرات وهي مخمورة عند قدميه، وخصلات شعرها المتموج علي وجهها:
« لو تأمرني اقط نفسي بالبركة .. أسويها فدوه لك».

فقال لها:

« قطي نفسك بالبركة».

فقامت من فورها، وهمت بالقاء نفسها في البركة، ولولا يقظة عيسى والصبيان الذين أمسكوا
بأطراف ثوبها لتحطم رأسها علي أرض وحوائط البركة العميقة، بينما ظل بونشمي يقهقهه
بصوت مخيف.

وبعد سنوات شبع فيها بونشمي من رومية، وامتص خلالها رحيقها، انقطع عنها .. ولكنه لم
ينقطع عن النساء بزواج أو غير زواج .. بينما ظلت رومية تحبه وتسال عنه كل من يزورها
، وتتبعه من مكان لآخر، وهو ينهرها ويطردها بقسوة.

ورغم أن الكثيرين كانوا يترددون عليها لسماع صوتها والاستمتاع برقصها، إلا أنها ظلت
تغني المواويل الحزينة وهي تبكي مخمورة وترفض الرقص، واختفى مرحها، واهملت نفسها،
ونفر منها الرجال شيئاً فشيئاً، وبحثوا عن أخريات في الحي يشبعن رغبتهم في العريضة
والسمر .. وظلت رومية في وحدتها تضم بعض ملابس بونشمي التي تركها لديها إلي
صدرها وتشم رائحته فيها .. وتقبلها وتبللها بالدموع.

واختفى الخير الذي كان يأتيها، فباعت ذهبها وحليها، وباعت أشياء كثيرة .. ثم قبلت أن
تستقبل من هب و دب في بيتها كي تضمن معيشتها بعد أن تخلت مساعداتها عنها، وعلمن
لحساب امرأة أخرى، أو لحسابهن الخاص ..

ولكنها ظلت تقارن دائماً بين بونشمي وبين الآخرين ذوي الأكف الخشنة، الجلفة، المتشقة
بسبب الأعمال القاسية التي كانوا يقومون بها ككل البحارة والبنائين وقاطعي الصخور
وحفاري القبور وآبار الماء.. هؤلاء الرجال الذين كانوا يأتون إليها بعيون ذاوية وهمة
مهودة، لا ينقضي أول الليل حتى يناموا بأذرع ممدودة كالقتلى، تفوح من أجسادهم رائحة
الفقر والعرق الزفر ..

كانت تستقبل هؤلاء الرجال والمراهقين الذين يأتون إليها ملثمين ويسهرون معها بالدين ..
وكثيراً ما كانت تسامحهم ولا تأخذ منهم مقابلاً ..

ثم انقطع عنها روادها وعاشت في وحدة كئيبة، موحشة، وعم الصمت المطبق أرجاء البيت الذي كان يعج يوماً بالحياة والفرح، وضحكاتهما التي كان يتردد صداها كصدح البلبل.

قام عبادين معنا بعد عناد قصير، وما أن اشترينا له « البوظة » حتى هدأ و بدأ يضحك .. ثم
تجرأنا بسؤاله عما يقوله عن « ابن بطيح »..

فابن بطيح كان صديقاً لبونشمي، وكان يمتلك أراضي وبيوتاً كثيرة، وكان له بيت كبير في
حولي يعرض في فئانه أفلاماً أيام الجمع، وكان أبناء الحي جميعاً يأتون لمشاهدة الفيلم الذي
يقوم صبيان ابن بطيح وأبناؤه بالاعداد له، فيعلقون غطاء فراش أبيض على الحائط ويثبتونه
بمسامير، ويضعون آلة العرض علي طاولة ويفرشون حصيراً وسجاداً للمشاهدين .. وكانت
عملية لف البكرات وتشغيل آلة العرض تأخذ وقتاً طويلاً، وكنا ننتظر بدء العرض بنفاذ صبر،
وما أن تطفأ الأنوار ويبدأ عرض الفلم حتى نصفق ونصيح بغبطة، وعندما تشعل الأنوار بعد
انتهاء الفلم تضطر الأمهات إلى حمل أبنائهن الذين ناموا أثناء العرض ..

ويحدث أن يظل بعض الأطفال نائمين، وتبدأ زوجة ابن بطيح بتفقدهم:
« من ولده هذا؟ »

ابن بطيح هذا بني بيته الكبير قرب « خباز حولي » الذي اصبحت فيما بعد حوائطه تستعمل
للتصق ملصقات الأفلام التي تعرض في سينما حولي الصيفي.

اختفى ابن بطيح وظل أبناؤه يبحثون عنه لسنوات طويلة، وقيل أنه كان يأكل غداءه مع أبنائه
عندما أخبره أحد صبيانه أن أحداً في الخارج يريد، ولكنه خرج ولم يعد، وبحث ابنه الكبير
عنه حتى في سوريا عندما سمع اشاعة أن أباه متزوج من امرأة سورية، ولكن ظل الشك
يحوم حول بونشمي، إذ يقال أن بونشمي قتله وألقى بجثته في بئر، ولم يجرؤ على ذكر ذلك
غير عبادين المجنون، وظل الناس يتهامسون فيما بعد عن خلاف بين بونشمي وابن بطيح
على أرض كبيرة كانت الحكومة ستتمنحها بمبلغ خيالي لاقامة مشروع حديث..

وافتقدنا الأفلام بعد اختفاء ابن بطيح ..

وعندما استحثنا عبادين أن يتحدث قال وهو يلحق البوظة:

إن بونشمي والاتجليز قتلوا ابن بطيح ورموه في البئر..ولكن جمال عبدالناصر خرج

عليهم بسيفه وقاتلهم .. فتذكرنا بدرية..

كاد أن يغمى عليها عندما سمعت عيسى ينطق بالخبر:

بونشمي سوف يسهر عندك ليلة الجمعة القادمة.

لم تدر ماذا تعمل، فالأمر كان امتحان لها، إما أن تعيد له ثقته في نفسه وإما أن يتركها دون عودة، ويضيع آخر أمل لديها.

قال عيسى:

الرجل يعلق أمله عليك يا رومية فإذا كنت تريدين عودة العز وأيامه عليك أن تشفيه، وأن

توقظي همته، وإلا فإنها النهاية.

خبطت على صدرها قائلة:

« أنا فدوة لعيون بونشمي .. ماحد يشفيه غيري .. »

وترقرقت دموع الفرخ في عينيها .. وبحثت كالمهووسة عن بقايا زينتها .. وفتحت الصندوق الخشبي الذي يحوي بقايا ذكرياتها من فساتين وملابس بونشمي، وأخرجت الفستان الذي يحبه بونشمي ويظهر خصرها الضامر، والذي جلبه لها بونشمي خصيصاً من دمشق، وحاولت أن تلبسه ولكن للأسف لم يناسب جسمها الذي تغيرت معالمه السابقة، وحاولت عنوة فتمزق في جزء منه، ولكنه في الحقيقة بدا بشعاً على جسدها المترهل .. وسقطت على سريرها تبكي احباطاً ويأساً لما آل إليه شكلها مع مرور الأيام.

ولكن الأمر يستحق المجازفة، ولذا قامت بالتحرك لرهن الشيء الوحيد الذي تملكه .. بيتها .. وما أن أطبقت بيدها على العربون حتى أسرعت بشراء الأقمشة الحريرية وخطاطتها بسرعة، وتجهيز المكان لسهرة تليق بحبيب العمر .. وظلت طوال أيام الاسبوع القصيرة تصبغ شعرها الذي ابيضت أجزاء منه بالحناء .. وتمرن صوتها الذي اخشوشن بفعل الزمن .. ونظفت الاسطوانات القديمة، وجربت تشغيل الحاكي ..

وكلما تذكرت اللحظة المرتقبة يرقص قلبها كالعصفور .. وفكرت بالأحاديث التي ستبدأها معه .. والنكات البذيئة التي ستسليه بها .. وتبادر إلى ذهنها أن أمنياتها ربما ستتحقق بزواجه منها إن هي استطاعت أن تعوضه عن بدرية ..

ولكنها في كل مرة تحرق في المرآة تصطدم بوجهها الذي مططته الأيام، وبذلت محاولات

كثيرة لأعادة نضارتها، فقامت بغمس أصابع يديها في زيت السمسم لفترة طويلة كي تعود
لنعومتها السابقة، ومضغت العلك البصري لفترة طويلة حتى يكون نفسها زكي الرائحة ..
كانت تبكي فرحاً كلما أدركت أن الأمر حقيقة لا حلم..

أسرع عيسى ومعه الصبيان باستقبال بونشمي ومساعدته على النزول من السيارة والدخول إلى المكتب .. وانتظر عيسى بضع دقائق ريثما يلتقط بونشمي أنفاسه ليقول له:
« الليلة موعدنا مع رومية ».

تلقت بونشمي بامتعاض ثم قال بحشرجة:

« انت متأكد أن المرة تقدر تقوم بالمطلوب؟ »

قال له عيسى:

« هذي مرة تعرف واجبها .. ولا تنسى أنها تحبك »

« مو هذا اللي مضايقتني .. المره لحوحة ولزقة »

ابتسم عيسى:

« المهم انها ترجع لك همتك .. حتى تكسر شوكة بدرية »

غارت عينا بونشمي وتغضن جبينه:

« بدرية كسرت شوكتي وهيبتي .. ويمكن يا عيسى هذي إشارة على نهاية طريقي ..

يمكن هذا حدي ».

« بعد عمر طويل يا عمي .. والمسألة بسيطة .. اشرب قهوتك وخلينا نتوكل على الله

ونروح حق رومية ».

سكب القهوة في جوفه قبل أن يسأل:

« كل شيء تمام؟ »

فأجاب عيسى:

« تمام يابونشمي .. دزيت الصبيان ونظفوا المنطقة، وخليت ثلاثة منهم يسدون الفريج

ويمنعون الريح والجاي ».

**

ظلت رومية تنظر من شق الباب، وزادتها الترتيبات في الحي اضطراباً لعلمها أن تلك علامات

تعني أنه قادم فلا أحد بهذه السطوة والفخامة والنفوذ غير حبيب القلب ..
وما أن دخل بونشمي من باب بيتها حتى أطلقت زغرودة كتّمها عيسى بيده، فانهالت على يد
بونشمي وقدميه تقبيلاً مما أزعج بونشمي:

« عيسى .. ابعدها ».

فرفعها عيسى من ذراعها قائلاً:

« هاتي كرسي بسرعة ».

اضطربت رومية وجلبت ثلاثة مساند ووضعتها فوق بعض بسرعة وقالت لبونشمي:

« ارتاح يا بعد عمري ».

جلس بونشمي وظل فمه نصف مفتوح يستنشق الهواء ويزفره بسرعة، وأشار عيسى لرومية

أن تترك بونشمي يرتاح قليلاً، وكان قلب رومية يخفق فرحاً وخوفاً.

مد بونشمي يده لعيسى، فأخرج هذا سيجارة وأشعلها ووضعها بين أصبعي بونشمي الذي

امتصها وسعل كثيراً، بينما كانت هناك أسطوانة معوجة تصدح بشكل مزعج.

ظل بونشمي يحدق في رومية .. بشكلها الغريب وهو يدخن سيجارته، بينما ظلت رومية

راكعة تحت قدميه وقلبها يدق بشدة وما أن قالت له:

« أرقص لك بونشمي »؟

حتى ضحك وقهقهه عاليا وسعل واضعاً كفه على صدره، ثم التفّت إلى عيسى ودموع الضحك

في عينيه وقال:

« جايب لي قردة تعيد لي شبابي »؟

وجمت رومية كالتمثال، وخرج بونشمي مستنداً على عيسى وصبيانته، بينما ظل صدى ضحكه

يتردد من بعيد.

بدرية التي جزعت في ليلة زواجها، إلتصقت بالحائط بينما كان بونشمي يقترب منها، إن كل ما حدث في تلك الليلة يبدو ككابوس يمر بها، فقد أحست بأنها فقدت حريتها وفقدت فهد، وفقدت حياتها التي ستقضيها في هذا السجن، ولم تعلم ما الذي جنته كي تبعد عن اللعب والمرح وعن فهد، وأحست بأنها واقعة تحت قوة تستطيع أن تمنعها عن ممارسة ما تريد.. تعيش ليس كما تريد بل كما يريد بونشمي فهو الذي يمنح ويمنع، ويشغل الناس، ويفصلهم من عملهم، بقوة وسطوة ماله.

وفي تلك الليلة تخيلت أن لدى بونشمي قرنين وأنياب وهو يقترب منها .. وعندما غضب فجأة وخرج يطرد الفرقة، لم تدرك السبب .. وحتى عندما جلب لها في الأيام التالية الهدايا ظلت بدرية كالفرس الوحشية لا تطيق أن يلمسها.

وفي يوم فوجئت بأمر نشمي وهي تقتحم الغرفة بشحمها الذي ظل يهتز لفترة طويلة، وتساقطت الأساور الذهبية فوق بعضها محدثة رنيناً عندما رفعت يدها السمينة قائلة:
« بس عاد .. خاف الله يابونشمي، وهل البنية وعطها وقت، البنت ياهل .. بعدها ماتفهم».

بينما استمر بونشمي بصفع ولكم وشد شعر بدرية ..
أمسكت أم نشمي بيد بونشمي، وسحبت بدرية التي كان وجهها منتفخاً، وأسنانها تنزف دماً، ورددت:

« حرام عليك يا ريال .. خاف الله .. حاط حركت بها المسكينة».

لم تفعلها أم نشمي من قبل، فطوال مدة عشرتها مع بونشمي لم تتدخل في شؤونها ولم يتدخل في شؤونها، ولذا ظل مدهوشاً وهو يلهث تعباً..

وبالطبع أم نشمي هي الوحيدة التي أدركت منذ ليلة زواج بونشمي من بدرية أن الرجل عجز، وهي الوحيدة التي تستطيع أن تفهمه من عينيه عندما تطل منهما الرغبة أو الشبع الجنسي فعيناه تعكسانه بكل حالاته ومشاعره، الغضب، الاحباط، الانتصار، الانكسار... وبكل تأكيد

أدركت ليلتها أن بونشمي عجز جنسياً، بل أن الانطفاء في عينيه في الأيام التالية أكد ذلك .. وأدركت أن ذلك سيكون بداية النهاية .. فهي تعرف بونشمي جيداً.

**

احتضنت أم نشمي بدرية وتعاطفت معها، وعاملتها كإبنة وليس ضرة، وعلمتها القراءة والكتابة والحساب وقضت معها وقتاً طويلاً، وأعطتها الكثير من الحنان ..

وأحست بدرية بالأمان في حضن تلك المرأة بشخصيتها القوية، ساعدتها في رعاية البقر والماعز فأحبتها أم نشمي أكثر .. بدرية لم تجد أم نشمي مهزوزة النفس أو غير متوازنة قط، بل كانت دائماً ثابتة، تعيش وكأن الدنيا كلها طوع يديها، لم يكن لديها خوف الآخرين من بونشمي .. وحتى زوجته بدتا تافهتين أمام أم نشمي، تقضيان يومهما بنتف حواجب بعضهما بالملقط أو تمشط إحداهما الأخرى، بينما تضي أم نشمي على كل عمل تقوم به، أو أمر تتحدث فيه جدية وأهمية .. ولذا فهي ملاذ أكيد لبدرية.

والحصار الذي أحست به بدرية جعل أفكارها تنطلق خلف الأسوار، نحو زملاء اللعب، المرح، البراعة، نحو ربيع حولي وغدرانه وطيوره وشمسه الصريحة .. نحو الحرية وتجسد كل ذلك بفهد الذي أصبح يكتب لها الرسائل ويرسلها لها سراً.. ووجدت بدرية العديد من الناس الذين يودون مساعدتها، سواء من اللواتي يدن لها بمعروف كهذا أو عن طريقنا، بعد أن وجدنا في ذلك أقل ما يمكن أن نفعله لبدرية وفهد، إضافة إلى أن عملاً مثل هذا يثير لدينا متعة المغامرة.. فأحياناً كنا نرسل طفلة صغيرة إلى بدرية ونضع الرسالة في ملابسها الداخلية .. وأحياناً كنا نصفر تحت نافذتها لتنزل لنا خيطاً وإبرة لنشيك لها الرسالة، بينما البقية تراقب الطريق بعد الاتفاق على كلمة سرية أو إشارة عند قدوم أحد ما، ونذكر أن الكلمة التي استخدمناها في ذلك الوقت كانت « كميأ » وتعني « ياكم » معكوسة .. وكثيراً ما كنا نتلامز عندما نرى بونشمي في السوق ونقول لبعضنا بصوت عال:

« عبود .. شنو طير طار في الأبحار لا له ريش ولا منقار »؟

فيرد:

« المكتوب يا حمار ».

أو نقول:

« الأخبار توصل من الحبايب يا عليوي وأنت نايم على عمرك ».

« يا يويسف والله لو ألق طابع على جبهتك وأدرك في البريد، هم راح تتم أثول ما تفتهم .. روح موت أحسن لك .. الطيور طارت بأرزاقها ».

ومع ذلك لم يخمن بونشمي، ولم يشك بهذا العمل المنظم من خلفه، وأصبحنا نبتدع الطرق لتوصيل الرسائل السرية بين فهد وبدرية .. ورغم أن أحدنا اعترض على ذلك في البداية قائلاً:

« أليس ما نفعله حراماً يا جماعة؟ »

ولكنه وجد استهجاناً:

« الحرام أن يتزوج شبيبة النخرة بدرية وهي بعمر بنت ولده »

« فهد حق بدرية، وبدرية حق فهد من زمان، وتفريقهم أهو الحرام ».

وفي النهاية اقتنعنا جميعاً بما نفعله، وأصبح لدينا يقين بأن بدرية لابد وأن تعود لفهد، وأن بونشمي هو عدونا.

لقد أحييت رسائل فهد، وحضن أم نشمي الآمن نضارة بدرية، كانت ترى فهد عبر كلماته التي سطرها بقلمه « الكوبيا»، ولاحظت أنه أصبح صريحاً في إبداء حبه، وجريئاً في طرح أمانيه، كما لاحظت أنه أصبح أكثر لباقة وثقافة من خلال رسائله التي أصبحت بالنسبة إليها، أهم شيء في الدنيا، فهي مبعث الأمل ..

فقد كان يردد دائماً في رسائله: « إن المستقبل المضيء أماننا .. والفجر لا بد آت بعد طول ظلام».. إن رسائله تفعل فعل السحر بها، وتحمسها، وتشجعها، وتزيدها حقداً على بونشمي .. « إن أمثال بونشمي أمدهم قصير وظلمهم مؤقت .. لا يغرك فهو ضعيف أمام حبنا .. فالظلم يضعف الانسان، والحق يقويه ويجعله لا يقهر».

لقد فتحت رسائل فهد عيون بدرية، وفهمت أشياء كثيرة، وتعلمت منها أشياء كثيرة .. ونضج حب بدرية وأصبح عميقاً وكبيراً.

فهد الذي كان يكتب لها الرسائل المطولة، لم يكتف ببث أشواقه وحبه فقط، بل ظل يحكي لها عن دقائق حياته، وكل ما يمر به في عمله وحياته اليومية، وعرفت من خلال رسائله أشخاصاً هم أصدقاءه **المخلصين**، وآخرين أعداء له.

وكتب لها عن أصدقاءه العراقيين والاييرانيين، ووصفهم بأنهم مثقفون و« فاهمين الدنيا» .. لا يشبهون العمال الآخرين .. طيبون يحبون العمال، والعمال يحبونهم، وتحدث عن « مجيد» العراقي، كيف كان يساعده في عمله وكيف أعطاه كتباً و قصصاً ليقرأها، وحكى له قصصاً عن بلدان العالم .. عن الحروب وكيف تشتعل ..

« أتدرين يا بدرية أن الحروب تشتعل بسبب الطمع والرغبة في الإثراء، وليس لعداوات شخصية بين الملوك والرؤساء كما كنا نعتقد».

وفي إحدى رسائله كتب لها:

حبيبتي بدرية..

كيف حالك؟

أنا مشتاق إليك كثيراً، والعمل مع الحديد والآلات والغاز اللي يخنق والدخان، كل هذا يزيدني شوق لك، شوق لعيونك اللي تقول كلام حلو، وشعرك وأصابع ايدك (ادري تستحين من هالحكي) ... لكن الحب عاطفة نفتخر فيها .. ما نخجل منها .. ولما نؤمن بهالحب يصير قوة كبيرة ..

أما عن زوجك فهو إنسان شرير وظالم .. وتأكدي أن زواجك منه موحلال أبدا .. أخذ حريتك غصبا عنك وهذا ما يرضي الدين، ولا يرضي أحد ..

حبيبتي

في الأيام الأخير ما استلمت منك غير رسائل قليلة .. أدري أكو صعوبات في تهريب الرسائل .. لكن حاولي تخترعين طرق جديدة، وبالمناسبة اشكري نيابة عني جميع الأصدقاء اللي ساعدونا، وهم في الحقيقة كسب كبير لنا ولقضية حبنا .. وهذا بالمناسبة لازم يدفعك للتفاوض مو اليأس مثل ما لاحظت في رسالتك الأخيرة..

فكري بالأمر: الحق معانا هذا أولاً وأساس كل شئ، ثانياً: زوجك مثل ما لاحظت أنت ومثل ما أخبرتك أم نشمي أصبح مهزوم في سلوكه وفي صحته .. حتى أن بعض صبيانه ماعادوا يهتمون لأوامره .. ثالثاً: الأمر الحين صار بإيد أم نشمي، وهي تحبك وايد وتدافع عنك ..

اذن لازم تعتمدين على أم نشمي حتى يطلقك بونشمي.. أم نشمي انسانة طيبة، لكنها تحتاج إلى ذكائك حتى تتعرض على بونشمي، وهي راح تساعدك في النهاية..

فكري يا حبيبتي بأملنا المشرق لما نتزوج، ونعيش حب وسلام .. وأنا متفائل وأحس أن الدنيا حلوة، وأن الزمن يعمل في صالحنا ..

أكيد أكو صعوبات .. فأنت متزوجة من رجل يسيطر على ناس وايد وأشياء وايد .. كذلك نظرة الناس إلى حبنا غير الشرعي بنظرهم .. ولكن الأمل أن نكسب متعاطفين أكثر خاصة بعدما يذوقوا ظلم بونشمي.

أما آخر أخباري ..

في البداية لا تغضبني لأني ما قلت لك عن الموضوع من زمان ..

كنت راح أروح في مصيبة .. كنت على موعد مع زملائي العمال لحضور اجتماع هام .. وكنت متأخراً عن الموعد فاضطريت المرور في منطقة «السينير»، اختصار حق الوقت لكن دورية من المنطقة شافنتني .. اشتبكت معاهم، والظاهر اني عورت واحد فيهم، وركضت بكل عزمي ..

وفي الصبح أيقظني رذاذ المطر اللي كان ينزل على وجهي .. ووقتها كنت أحلم أنني أغرق .. لقيت نفسي بين أشجار قصيرة حممتني من دوريات الأحمدية .. نهضت وأنا أحس أن أكو كسر في عظمة من جسمي، وتذكرت الموعد .. قمت وسرت باتجاه مساكن العمال .. وعندني دوخة ..

وصلت وانتظرت عند الباب المسكر .. حتى رجعت أفواج العمال التعبانة .. ولما شافني مجيد:

فهد مايك؟

وحكيت له ما حدث في الليلة الفائتة:

ماكان يجب أن تدخل منطقة السينير ..

كانت هذه ردة فعله المباشرة، لكنه أضاف كحل عملي.

.. وعلى كل حال غيابك اليوم نستطيع التغطية عليه .. لدينا ممرض هندي صاحبنا ..

نستطيع أن نوحى له بسرقة ورقة طبية رسمية، وبسرقة ختم الطبيب .. وبذلك تكون اليوم وغداً وبعده في إجازة طبية..

كان مجيد قد فتح أثناء ذلك الغرفة وعمل على غلي الشاي.
وأكمل:

.. أما عن اجتماعنا فقد أسفر عن اتفاق حول ضرورة وجود جمعية تمثل العمال في مطالبهم، على أن تختار من قبلنا نحن العمال، ونحن الذين نحدد لها اختصاصاتها ومسؤولياتها .. والرأي المشترك يقول بأنه من دون هذه اللجنة، ستصبح مطالبنا العمالية ضعيفة ومشتتة .. وغير منظمة .. وستصبح كلمتنا غير موحدة.

كنت وقتها أرشف الشاي عندما سألني مجيد:

هل تعرف موظفاً كبيراً بالشركة أسمه نعمان؟

نعمان؟!!

أجبت مدهوشاً فقال:

نعم .. نعمان هذا يقال أنه كان عاملاً، ثم رُقي لخدماته للانجليز فأصبح موظفاً كبيراً ..

نعمان هذا يوظف عمالاً بيننا كجواسيس ينقلون لإدارة الشركة كل ما يحدث بين العمال .. وكل ما يقوله العمال..

وبالطبع يا بدرية قلت له كل ما أعرفه عن نعمان .. ولم أندش من وصول نعمان إلى هذا المركز .. وربما تذكرين تحذيرات فلاح حوله.

المهم أن مجيد أخبرني بأنه سيكون هناك اجتماع آخر واسع لاستكمال أمر اللجنة الممثلة للعمال.

وفي النهاية .. أشتاق لحولي .. لحواريها .. وأماكن ذكرياتنا..

سكنت الدنيا، وانفتحت سماعات المذياع، في كل مكان .. في المدارس .. السيارات والبيوت، وأماكن العمل، وقرب المنشآت النفطية، وفي مساكن العمال، وفي « البحرة » حيث تجمع الرجال مساءً، وامتصوا سجائرهم بعصبية وحماس .. ورأينا أناساً يركضون وسيارات مسرعة .. وتحدثت النسوة عن الأمر باهتمام:

« يقولون فرنسا وبريطانيا واليهود هجموا على مصر ».

وأصبح الخبر سائداً في كل مكان .. ولاحظنا حبات العرق على جباه بعض المتحمسين ولاحظنا أن زوايا أفواه بعض الرجال قد اتجهت إلى أسفل وهم يقولون من خلف أسنانهم المطبقة:

أولاد الكلب.

ولعلت خطابات جمال عبدالناصر في ليالي حولي .. وعندما كنا نمر قرب البيوت في الليل كنا نسمع صوتاً حماسياً تصاحبه خشخشة الإرسال غير الواضح، القادم من الغرب البعيد .. من القاهرة..
أيها المواطنين .. أيها الشعب.

وتكررت كلمات .. كالقومية العربية والاستعمار والرجعية .. وارتفعت حدة النقاشات في « البحرة » وتحدثوا عن الحشود العسكرية لبريطانيا وإسرائيل وفرنسا .. وتحدثوا بحماس عن بطولة الفدائيين المصريين في بورسعيد..
ووقف جويعد كمن لدغه ثعبان صارخاً:

نعال عربي واحد تسوى ألف انجليزي وإسرائيلي وفرنسي ثم ارتجل قائلاً:

جيتكم والبندق حشيته	جيتكم ياعرب فزعان
مصري سوداني أهل	كويتي وسوري أخوان
جيتكم والنخوة برأسي	تري نخوتي نخوة عربان

وتوقفت حركة السوق .. ولاحظ البعض أن هناك مواد غذائية اختفت، وبعضها تضاعف سعرها، وجرت مشاحنات بين الأهالي وبعض التجار الذين برروا:

« كله راح نبعثه لأهل بورسعيد».

إلا أن الاحتكار قد كشف، ولذا فقد تشكلت لجنة شعبية لجمع التبرعات وإرسالها إلى مصر فوراً، وامتنع طلاب المدارس عن الدراسة، واعتصموا في ساحات مدارسهم، وصنعوا دمي على شكل رجال انجليز واحرقوها هاتفين:

تعيش الأمة العربية ..

يعيش جمال عبدالناصر ..

وحدة قومية عربية..

وتغير طابع بعض الحوائط، عندما امتلأت بالشعارات المكتوبة « يسقط الاستعمار والصهيونية.. تحيا الوحدة العربية».

وحتى المقبرة المهجورة التي وجد فيها « أبوقبير» تحولت حوائطها إلى لافتات كبيرة .. وسمع الأطفال قصصاً عن عودة الدولة العربية الواحدة، وعودة اللباس العربي والعمامة العربية، وعودة الأمة العربية إلى جذورها، وعودة الخيل والسيف، وتخيل الأطفال أنفسهم وهم يسرون ممتشقين سيوفاً ورماحاً، وراحوا يصنعون سيوفاً خشبية، ويمثلون حرباً بين العرب واليهود واختلفوا على من سيمثل جمال عبدالناصر ..

**

وكادت أن تحدث معركة كبيرة بين أولاد حيناً وأولاد حي « المنير» .. وبدأ الأمر عندما دارت مناقشة حول جمال عبدالناصر، فصاحبنا يقول:

أنه عربي.

والآخر قال:

أنه مصري.

وصاحبنا قال:

أنه رجل طيب.

والآخر قال إن والده أكد له:

أن جمال عبدالناصر كافر.

فجهزت النباتات والعجرات «وامتلأت الجيوب بالحصى الصقيل» .. وتقدمنا إلي حي « المنير» تقودنا الحماسة، وما أن دخلنا الحي حتى وجدنا أولادهم قد قسموا أنفسهم، فوقف بعضهم يحمل العصي، ووزعوا حملة النبائط فوق الشجر، وعند منعطفات الأزقة، وفوق أسطح المنازل .. وعرفنا أننا سوف نخسر هذه المعركة لا محالة، إذ يبدو أنهم استعانوا بأولاد من أحياء أخرى، وقد يكونون أمهر الرماة في الحجر والنباطة .. ووقفنا متقابلين يمتزج الخوف بالكرامة والنزق في عيوننا، وبعد لحظات صاح قائدهم:

« ها.. شفيكم؟.. خايفين؟»

فرد أحدنا:

« لا .. محنا خايفين، لكن قبل لا نبتدي لازم نتكلم»

فأجاب قائدهم:

« يلا.. ذروا واحد فيكم»

فلكز بعضنا صاحبنا قائلاً:

« أتريدهم أن يقولوا عنا جبناء؟»

« أهم بعد خايفين .. وأحسن نتصاحب ونتفاهم بدل لا تسيل الدمان؟»

وحالما وصل إليهم صاحبنا قال بشجاعة:

« إذا بغيتوا الحرب ماعندنا مانع .. ولكن ليش نتحارب واحنا كويتيين؟..»

لانت وجوه الصبية وأكمل صاحبنا:

« احنا ما علينا من جمال عبدالناصر .. المهم انتوا كويتيين والا لأ»؟

فأجابوا بحدة:

« بلى .. بلى إحنا كويتيين غصب على اللي ما يرضى».

« وانتوا عرب والا انجليز؟»

« إحنا عرب ونص».

« خلاص .. إحنا بعد كويتيين وعرب .. ليش نتهاوش ونعور بعضنا؟!.. نتصاحب

أحسن.

تطلع أولاد حي « المنير» ببعضهم وأكمل صاحبنا:

« أما إذا بغيتوا المعركة .. كالربع جاهزين».

« ارجع حق ربك وخليني أتكلم ويا ربي».

اقتربت الرؤوس مع بعض، بينما رجع صاحبنا وهو أقل توتراً، واحترار الرماة الذين فوق الأشجار واسطح المنازل، فلم يفهموا من الأمر شيئاً .. وما هي إلا دقائق حتى اقترب أولادهم باتجاهنا، فجهزنا أسلحتنا ولكن قائدهم بادرنا:

« لا .. مافي داعي إحنا جايين نتصاحب».

ثم سلمنا على بعضنا..

**

تغنى شعراء الكويت بالعروبة، ونشرت مقالات كثيرة عن الاستعمار الذي ينهب ثرواتنا، وعن الكرامة العربية .. وبدأ الغضب الذي عم ليس حولي وحدها ولكنه انتشر على أرض الكويت كلها يرتكز على عمل ملموس بدأه عمال النفط وانتشرت عدواه إلى فئات الشعب الأخرى..

ففي فجر أحد الأيام .. اتجه العمال إلى ميناء التحميل لمزاولة عملهم، فشاهدوا خيال عامل يقف كالمارد في غبشة الفجر عند مدخل الميناء وهو يوزع منشوراً على العمال يدعوهم فيه إلى الامتناع عن تحميل ناقلات النفط الاجنبية، وبالأخص الأمريكية والانجليزية والفرنسية بالنفط الكويتي.. الإضراب عن العمل و التجمع .. وعرف العمال هذا العامل .. لقد كان فهد ..

قرص العمال وامتصوا سجائرهم، و صدر سعال من هنا وهناك .. وكلما حضر عامل يدعونه للجلوس، ولما اكتمل حشد العمال خطب عدد منهم، و كان أكثرهم تأثيراً فهد عندما قال:

هذا النفط الذي نشحنه في بواخرهم، ونبذل فيه جهدنا وعرقنا .. ليس فقط لا نحصل مقابلته على الأجر الذي نستحقه، ولكنه أيضاً يوجه إلى صدور أخواننا المصريين .. هذا النفط الذي هو ثروتنا وحقنا يستخدم في قتل أخواننا العمال في كل مكان، و بالأخص في مصر .. فهل تريدون قتل أخوانكم المصريين بجهدكم ومالكم؟!!

أخواني وزملائي العمال:

إن العمال في العالم أصبحوا اليوم قوة مهابة باتحادهم، وبقوة إيمانهم بقضيتهم، وأنتم جزء منهم .. وكالعاده ، وكما توقع فهد بخبرته، ظهرت أصوات محبطة ومتخاذلة:
ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ .. نحن عمال بسطاء لا نملك أية قوة .. لدينا أسر نعولها، ولا نريد إلا حسن الخاتمة .. إن التهور سيقودنا إلى عاقبة سيئة .. دع السياسة للسياسة .. ودعنا نأكل لقمة عيش ..

فصرخ فهد بينما يرتفع رذاذ البحر فوق رأسه عندما اصطدمت موجة برصيف الميناء:
وهل تعمل السياسة في فراغ .. ألا تحتاج الآلة إلى وقود؟! نحن وقود الحرب، وبأيدينا أن نصبح اداة للسلام .. من تعتقدون سيحمل السلاح في الحرب؟ السياسة أم نحن؟ من سيخرج هذا النفط الذي يمكن أن يستخدم سلاحاً لقتل حرية الشعوب أو يستخدم لرخائها .. ثم لماذا نحن معزولون عن السياسة.. هل نحن أغنام؟ فتمايلت بعض الرؤوس مستنكرة:
لا . لا ..

صمت فهد لحظة وتطلع في عيون العمال التي أصبحت تبرق بوميض الحماس:
أيها العمال .. أمتنعوا عن التحميل ..
وفي هذه الأثناء سمع صوت رجل قادم بلكنة أجنبية:
شوفي حمار؟ .. يلا اشتغل كلب .. « صن اف ذي بتش » ..
فتطلع العمال بشيء من الاستنجاد بفهد الذي ابتسم قائلاً:
ألم أقل لكم؟ .. إنه يعني أولاد العواهر .. هل رأيتهم ما أعني؟
وفجأة وقف أحد العمال الشباب، وكل عرق في جسده ينبض بشدة صائحاً:
إنت وحدك ابن العاهرة .. أما نحن فأشرف من ملتك .
ثم اتجه إلى محبس الأنابيب، فأداره بيديه.
لن تحصلوا على نقطة واحدة من ثروتنا أيها الكلاب .. وماهي إلا لحظات حتى قفز العمال وأقفلوا كل محابس الأنابيب .. ثم عمت الفوضى ..
لنقتل الانجليزي الكلب .
لنحطم هذه الآلات ونحرق البترول ..
فصاح فهد وزملائه:

لا . لا أيها الزملاء إن هذا البترول هو ثروتكم، مالكم .. وهذه الآلات إذا أديرت بإخلاص

فإنها تصبح خيراً عليكم .. الذنب ليس ذنب الآلات والبتروول وإنما كل الذنب على هذا ..
وأشار فهد ناحية المسؤول الانجليزي الذي اضطر أن يهرب والحرس الهنود بعد أن قال
وشعراته الصفراء ترقص على وجهه:

- أوريكم .. عرب كلاب ..

- واستطرد فهد:

- أتركوه .. فقتله لن يحل المشكلة بل سيعقدها ..

جفت حلوق الطلبة، وتصاعدت رائحة العرق من آباطهم وأحذيتهم بينما كانوا يسيرون في مظاهرة، وهم يحملون كتباً مدرسية تمزقت أطرافها من كثرة حملها واستعمالها .. وهتفوا بسقوط الاستعمار، وهتفوا مع نضال الشعب المصري، وخرجوا من ثانوية « شويخ » في مظاهرة كبيرة، وتجمهر عدد كبير من الناس يراقبونهم واشترك البعض معهم .. وبعد ساعات حضرت سيارات الشرطة وأنزلت أفراداً من الشرطة ضربوا المتظاهرين الذين تفرقوا ودخلوا بعض بيوت الأهالي.

**

إن الأمور في بيت بونشمي كانت أسخن من الشارع، فقد كانت هناك حركة غريبة .. الخدم والصبيان يركضون في جميع الاتجاهات، وزوجتا بونشمي تبكيان .. وانتشر همس أن بونشمي يحتضر ..

وعندما سمعت بدرية هذا الخبر طار عقلها، وبدت عيناها وحشتين من الغضب، لم تكن تريد أن يموت بونشمي وهي على ذمته، كانت تريد طلاقاً .. كانت تريد انعتاقاً حقيقياً تأخذه بيدها .. ولكن قبل ذلك اقترب عيسى من أذن بونشمي هامساً:

« بونشمي .. بني آدم سمعته وماله وعياله بعد ما ياخذ الله أمانته...».

فشحب وجه بونشمي وحشرج:

« حللني يا عيسى وسامحني .. وعند المحامي ورقة بوصيتي لك .. جزاء خدمتك

واخلاصك »

فسقطت دموع عيسى على وجهه المجعد وخرجت كلماته باكية:

« الله يشافيك وما تشوف شر يا عمي .. أربعين سنة يا عمي كنت الأخو والأبو لي ..

وأنا خدمتك لحبي لك مو لشي ثاني .. خيرك مغرقتي، وما خليت علي قاصر...».

ثم مسح دمعاته بطرف غترته وأكمل بصوت أكثر ثباتاً:

« مو هذا قصدي يابونشمي .. قصدي مرتك بدرية .. لا هي اللي مرتك صحيح ولا ريحتك .. وفوق كل هذا بتورثك بعد عمر طويل انشالله .. وعيالك الله يطول بأعمارهم وحرملك أحق بهذا الورث»..

بدا بونشمي طيعاً قابلاً لأي شيء يقال له فاستطرد عيسى:

« .. وبعد السمعة ياطال عمرك .. بدرية بنت لين الحين وتعرف القيل والقال .. وبني آدم ما يبني غير حسن الذكر بعد موته»..

بان الضيق والامتعاظ على وجه بونشمي الذي علتة صفرة الموت، فقال باجهد:
« الزبدة .. خلصني».

« طلقها عمي .. طلقها خل تولي باللعنة .. ما شفت منها غير الأذية والكدر».

ضاق تنفس بونشمي وهو يقول:

« يصير خير .. يصير خير ».

ولكن لم يكن عيسى ليجرؤ على ذكر ذلك لولا أن أولاد بونشمي وزوجتيه حرضوه على ذلك .. ولولا علمه أن نهاية بونشمي قريبة جداً، وأن كل هذه الثروة ستكون بيد أولاده، أسياده القادمين وأرباب عمله، ولم تكن أم نشمي تعلم أي شيء من هذا الأمر، ليس لأنها لن توافق، ولكن لا أحد يجرؤ على مفاتحتها بأمر كهذا .. حتى أولادها.

ولكن بدرية استشاطت غضباً واتجهت إلى غرفة بونشمي، بينما كان أولاده وزوجته وأم نشمي وعيسى واقفين قرب سريرها، وكان هناك بعض الصبيان الجالسين على الأرض، جاهزين لتلبية أي أمر..

دخلت بدرية بشكل عاصف واتجهت إلى بونشمي الذي كان ينتظر ملك الموت .. تغيب أفكاره فيظنون أنه مات، ثم تعود فيطلب شيئاً .. ولم يستغرب عيسى أن بونشمي طلب أن يدخن، بينما استغرب بعض أبنائه .. رفع عيسى رأس بونشمي بمساعدة أحد أبنائه، ووضع سيجارة بفمه، فامتصها بونشمي بضعف شديد ثم نفخها ..

أسكت بدرية بتلابيب بونشمي صارخة بحنق:

طلقني .. طلقني قبل أن تموت.

التفت الأبناء إلى بعضهم بشيء من الارتياح رغم غرابة الموقف، وحاولوا بجدية قليلة رفع بدرية عن أبيهم، ومع كل هذه الصجة كانت أم نشمي لا تحرك ساكناً .. وحشرج بونشمي

بصوت ضعيف:

طا..لق...

فالتفتت بدرية بعينين منتصرتين إلي الجميع:

هل سمعتم؟ .. لقد طلقني .. لقد طلقني .. هل أنتم شاهدون؟

فاقتادوها إلي الخارج قائلين وهم يخفون فرحهم:

نعم يا بدرية .. سمعنا .. لقد طلقك وسنشهد على هذا إن أردت في أي مكان .. فقط

أخرجي لا يجوز ذلك.

ابتسمت أم نشمي ابتسامة شاحبة ورددت بصوت منخفض مهموم:

لاحول ولا قوة إلا بالله.

تناولت بدرية عباؤها، وخرجت راكضة خارج المنزل الكبير.

حشرج بونشمي وغارت عيناه، وفي الخارج جاءت ضجة المتظاهرين:

تحيا الكويت .. يسقط الاستعمار.

أنّ بونشمي، وخرج زبد كثير من فمه، وتحركت عيناه في كل الاتجاهات، ولم يسمع أي كلمة

قيلت له .. واقترب الموت كثيراً .. وذرفت الزوجتان دموعهما، وتغضن وجه أم نشمي، ونفخ

أحد الأبناء سيجارته دون خوف من أبيه هذه المرة .. و استمع الجميع إلي الهواء الذي

يدخل ويخرج من فم بونشمي بصوت غريب يشبه صوت شاة تذبح .. وارتفع رأس بونشمي

فجأه، وبرقت عيناه بشكل أخاف الجميع، حتى أن ابنه رغم كبر سنه أخفي سيجارته خلف

ظهره .. ولكن رأس بونشمي سقط مرة أخرى وظلت العينان مفتوحتين، والفم مفتوح ولكن

دون صوت أو نفس.

رجعت بعد اثنتي عشرة سنة من أمريكا، درست خلالها الهندسة ثم حصلت بعدها على الماجستير ثم الدكتوراه، وعدت إلى الكويت .. ورغم كل ما رأيت وتعلمته في أمريكا لم أنس حولي ..

قدت سيارتي باتجاه حولي، ولم أجد حولي التي تركتها، فقد تغيرت معالمها، واختفت كل ملامح الطفولة والذكريات الجميلة، فقد قامت الحكومة بتثمين ما تبقى من البيوت، فهدمت وبنيت الكثير من العمارات السكنية والمحلات التجارية ..

ذهبت إلي مكان حيناً، ولم أجد ما يمكن أن أستدل عليه عدا مسجد حولي، أما «البحرة» فقد تحولت إلي عمارات سكنية متراسة، تقطنها الجاليات العربية، وبعض الكويتيين، لم يكن هناك أثر للسدر، ولا لحوطة بو عيسى .. لا يوجد أي أثر لطفولتنا ...

اقتربت من مسجد حولي ، فوجدته صغيراً نسبة إلي مقياس الطفولة .. فقد كنا نحسبه مبنى ضخماً..

تفحصت جدرانه علني أجد العلامات التي وضعتها أنا وزملائي فوجدت بعضاً منها .. وتلمست أصابعي حفراً على الجدار يقول: « عليوي كلب» .. وآخر لم يظهر إلا بعضه كان اسم بدرية، وحاولت أن أتذكر من منا كتبه، ولكني لم أستطع أن أتذكر، فلكل واحد فينا مصلحة في كتابته.

وتجولت على قدمي في حولي، واكتشفت أنها أصغر كثيراً مما كنت أراها في طفولتي .. حتى إذا وصلت إلى أطلال لم تزل كلية، ظللت أحسب وأراجع ذكرياتي، فأعرف أنها بقايا بيت النهام، أو بيت الهزاع ...

تعبت وأصابني الدوار، ورحت أتخيل سماع أصوات لعب الأطفال، وأصوات السامري والفريسي، وصوت المذيع يخشخش في البحرة فأحسست بالشجن...

وذهبت إلى بيتي وحنيني يشدني إلى الماضي وآلاف الأسئلة عن مئات الأشخاص تراودني .. وظللت أسأل لفترة طويلة عن بيت بونشمي فقيل لي: أن أم نشمي توفيت .. بعد أن انتقلت في بيت كبير وحديث في إحدى ضواحي الكويت، ووضع لها أولادها معزتين وبضع دجاجات بحجة أن زريبة كاملة هي وسخ غير مقبول ..

ماتت أم نشمي وتضاعفت ثروة أبنائها الذين أحالوا عيسى على التقاعد، فظل هذا جالساً طول الوقت على دكة خارج بيته، يوقع بإصبعه على فخذة التوقيع الذي ظل يوقع به على معاملات بونشمي مدة أربعين عاماً، بحركة عصبية لا إرادية، ويقال أنه خرف، وأنه يعلق في ديوانه صور فوتوغرافية كبيرة لبونشمي، وهو يعرف بين الناس بـ« كيتب بونشمي» كصفة طبقية مميزة .. وعين أولاد بونشمي وكيلاً لأعمالهم لبناني الجنسية.

أما إحدى زوجتي بونشمي فقد تزوجت من سائقها اليمني، ويدور همس أنه كانت هناك علاقة قديمة بينهما حتى على حياة بونشمي .. أما الزوجة الأخرى فلم يعرف عنها شيء .

وسألت عن رومية فقيل أنها انتحرت .. رمت نفسها في البركة.

وطال بحثي كثيراً عن فلاح، بعد أن تناقضت الآراء حول حياته و مماته .. وأوصلتني تحرياتي إلى دار المسنين .. بمساعدة من بضع موظفين وأخصائيين اجتماعيين أشاروا ناحية عجوز أسمر، ترك البحر آثاره على جلده وأصابع يديه الخشنة .. كان يلبس الغترة على طريقة البحارة، مشغولاً بصنع سلال من الخوص والخيزران ناديته:

فلاح:

فرقع رأسه باتجاهي فحقق قلبي رهبة .. ضيق فتحتي عينيه محاولاً التعرف علي .. نظرت إلى ملامحه القاسية، إلى شواربه البيضاء التي تلونت بصفار النيكوتين .. لم يعرفني بالتأكيد .. ولم أعرف ماذا أقول له غير:

محتاج شيء؟

فقال بلهجة يخاطب فيها مسؤولاً:

« بس يسمحون لي بالتدخين .. ويخلوني أسوي طواريف»

اهتز كياني، فوضعت يدي في جيبي وقدمت له سيجارة وأشعلتها رغم احتجاج المشرف:

« ممنوع يا دكتور .. أرجوك لا تخرجني ».

رددت بحدة غير ظاهرة:

على مسؤوليتي.

ثم التفت إلى فلاح، ووضعت كفي التي كانت صغيرة جداً في ذلك الزمان علي كتفه وقلت:

سأعمل على أن يدعوك تصنع شباكاً وحبالاً وسنارات وكل ما تريد ..

نظر إلي بامتنان وامتص سيجارته بقوة ..

**

لم أسأل كثيراً عن بدرية إذ قيل لي أنها شوهدت آخر مرة في مقدمة إحدى المظاهرات، يدها

بيد فهد .. ولو حظ أنها كانت حبلية .. وبعدها اختفت، ولم يعلم أحد عنها أي شيء.

فتمتت:

هذا ثاني اختفاء لبدرية.

ولما سئلت:

ماذا؟!؟

ابتسمت برضاً وقلت:

ستعود ... حتماً.

انتهت 3 تموز/ يوليو 1988م

صدر للمؤلف:

- 1-تعلق نقطة..تسقط طق
دار الفارابي 1983م، بيروت
مجموعة قصص
 - 2-إرادة المعبود في حال أبي جاسم ذي الدخل المحدود
الطبعة الأولى دار الفارابي 1989م، بيروت
الطبعة الثانية دار قرطاس 1995م، الكويت
مجموعة قصص
 - 3-بدرية
رواية
الطبعة الأولى دار الفارابي 1989م، بيروت
الطبعة الثانية دار النهج الجديد 1993م، الكويت والقاهرة.
 - 4-طلقة في صدر الشمال
متتالية قصصية
الطبعة الأولى دار الفارابي 1992م، بيروت
الطبعة الثانية دار قرطاس 1995م، الكويت
 - 5-الريح تهزها الأشجار
قصص
دار النهج الجديد 1994م، الكويت والقاهرة
 - 6-إيكاروس
نص مسرحي وقصص
1997م
الكويت
 - 7-موستيك
رواية
الطبعة الأولى دار الفارابي 2008م بيروت
 - 8-اليوم التالي لأمس
رواية
الطبعة الأولى دار الفارابي 2009م بيروت
 - 9-أما بعد
رواية
- صدر له كذلك في مجالات أخرى:
- 10-العلاج بالطاقة الكونية
ريكي 1 وريكي 2
دار قرطاس 2003، الكويت
 - 11-علم وفن التنويم

